تطريز

رسالة ابن القيم

إلى أحد إخوانه

تصنيف العلامة

أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية

المتوفى سنة (٧٥١) رحمه الله تعالى

منقول من الشرح الصوتي لمعالي الشيخ الدكتور

صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

عضو هيئة كبار العلماء والمدرس بالحرمين الشريفين

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

النسخة الأولى




بَرْنَامَجُ الدَّرْسِ الوَاحِدِ

السَّنَةُ الرَّابِعَةُ ١٤٢٦

الكِتَابُ الثَّلاثُونَ

تَطْرِيزُ

رِسَالَةِ ابْنِ القَيِّمِ

إِلَى أَحَدِ إِخْوَانِهِ







سلسلة شروح وتطريزات فضيلة الشيخ (٧٩)

تطريز

رسالة ابن القيم

إلى أحد إخوانه

تصنيف العلامة

أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية

المتوفى سنة (٧٥١) رحمه الله تعالى

منقول من الشرح الصوتي لمعالي الشيخ الدكتور

صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

عضو هيئة كبار العلماء والمدرس بالحرمين الشريفين

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

النسخة الأولى







بسم الله الرحمن الرحيم

للإعلام بالأخطاء الطِّباعية والاستدراكات والاقتراحات؛

يُرجىٰ المراسلة علىٰ البريد التالي: Abdellahdj24@gmail.com







الحمد لله ربِّنا، وأشهد ألَّا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله.

أمَّا بعدُ:

فهذا هو (**الدّرس الثّلاثون**) من (**برنامج الدّرس الواحد الرّابع**)، والكتاب المقروء فيه هو «**رسالةٌ كَتَبها ابن القَيِّم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **تعالى إلى أحد إخوانه**».

وقبل الشُّروع في إقرائه لا بدَّ من ذِكْر مُقدِّمتين اثنتين:









المُقَدِّمَةُ الأُولَى: التَّعْرِيفُ بِالمُصَنِّف

وتنتظم في ثلاثةِ مقاصدَ:

- **المقصد الأوَّل: جَرُّ نَسَبِه:**

هو العَلَّامة المُحَقِّق محمَّد بن أبي بكر بن أَيُّوب الزُّرَعيُّ ثمَّ الدِّمَشقيُّ.

يُكْنَىٰ بـ(أبي عبد الله).

ويُعرَف بـ(شمس الدِّين)، وبـ(ابن قيِّم الجَوزيَّة)، ويُقال اختصارًا: (ابن القَيِّم).

و(**الجَوزِيَّة**): مَدرسةٌ كان أبوه قَيِّمًا لها.

و(**القَيِّم**) هو المُدَبِّر لشؤُون المدرسة المُتَصَرِّف في أوقافها، بمنزلة (المدير) في عُرْف أهل العصر.

- **المقصد الثَّاني: تاريخ مولده:**

وُلِد سابعَ صَفرٍ، سنة إحدىٰ وتسعين وستِّمائة (٦٩١).

- **المقصد الثَّالث: تاريخ وفاته:**

تُوفِّي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- ليلة الخميس ثالث عشر شهر رجبٍ، سنة إحدى وخمسين وسبعمائةٍ (٧٥١)، وله من العُمر ستُّون سنةً، فرَحِمَه الله تعالى رحمةً واسعة.









وتنتظم في ثلاثة مقاصدَ أيضًا:

- **المقصد الأوَّل: تحقيق عنوانِه:**

لا تشتمل النُّسخ الخَطِيَّة في هذه الرِّسالة على تَعيين اسمٍ سَمَّاها المُصَنِّف به، وإنَّما يضع لها مُفَهْرِسو المخطوطات ما يرونه مُناسِبًا لمضمونِها.

وأَدَلُّ عبارةٍ على ذلك: أنَّ هذه الرِّسالةَ (كتابٌ أرسله ابن القَيِّم إلى أحد إخوانه).

- **المقصد الثَّاني: بيان موضوعه:**

موضوع هذه الرِّسالة: وَصِيَّةٌ جامعةٌ، ونصيحةٌ نافعةٌ، عليها أنوار الوَحيَيْن.

- **المقصد الثَّالث: توضيح منهجه:**

أصل هذه الرِّسالة - كما سلف -: إِنَّما هو كتابٌ أرسله ابن القَيِّم إلى أحد إخوانه؛ فهي معدودةٌ من جُملة المَكتوبات بين أهل العلم، فلم تُكتَب أصلًا على وَضْع التَّصنيف، غير أنَّ ابن القَيِّم - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أَظْهَر فيها جُمَلًا من التَّقاسيم النَّافعة، والمشاهد الإيمانيَّة اللَّامِعة، بما عَزَّ نظيرُه في بَقِيَّة تصانيفه؛ فعلى هذه الرِّسالة حلاوةٌ، ومَنْ ذاقها مِرارًا عَرَف ما فيها من الطَّلَاوة.








قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الله المَسؤُول المَرْجُوُّ الإجابَةَ أَنْ يُحسِن إلى الأخ علاء الدِّين فِي الدُّنْيا والآخرة، وينفعَ به، ويجعله مباركًا أينما كان، فَإِنَّ بَرَكَة الرَّجُلِ: تعليمه للخير حيث حَلَّ، ونُصْحُه لِكُلِّ مَنْ اجتمع به.

قال الله تعالى - إخبارًا عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ -: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١]؛ أي مُعَلِّمًا للخير، دَاعيًا إلى الله، مُذَكِّرًا به، مُرَغِّبًا في طاعته؛ فهذا من بَرَكَةِ الرَّجُل.

ومَنْ خَلَا مِن هذا فَقَد خَلَا من البَركة، ومُحِقَت بَرَكَةُ لِقائه والاجتماع به، بل تُمْحَق بَرَكَةُ مَنْ لَقِيَه واجتمع به؛ فَإِنَّه يُضَيِّع الوقت في المَاجَرَيَات [1]، وَيُفْسِدُ القلب.

وَكُلُّ آفةٍ تَدخل على العبد فَسَبَبُها: ضَياع الوقت وفساد القلب، وتعود بِضياع حَظِّه من الله، ونُقْصَان دَرَجته ومنزلته عنده.

ولهذا وصَّى بعض الشُّيوخ فقال: احْذَروا مُخَالطة مَنْ تُضَيِّع مُخالطته الوقت، وتُفسِد القلب؛ فَإِنَّه متى ضاع الوقتُ وفَسَد القلْب انْفَرطَتْ على العبد أموره كلُّها، وكان مِمَّنْ قال الله فيه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

---

(١) يعني ما يجري من الحوادث والوقائع.

وَمَنْ تَأَمَّل حال هذا الخَلْق، وَجَدَهم كُلُّهم - إِلَّا أَقَلَّ القَليل - مِمَّنْ غَفَلَت قُلُوبُهم عَن ذِكْر الله - تعالى -، وَاتَّبَعوا أهواءهم، وصارت أمورهم ومصالحهم ﴿فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]؛ أي فَرَّطُوا فِيمَا يَنْفعهم وَيَعُود عليهم بِصَلَاحِهم، وَاشْتَغَلوا بِما لا ينفعهم، بل يعود بِضَرَرِهم عَاجلًا وآجلًا.

وَهؤلاء قد أَمَرَ الله - سبحانه - رَسولَه أَلَّا يُطِيعهم؛ فَطَاعة الرَّسُول لا تَتِمُّ إِلَّا بِعَدم طَاعةِ هؤلاء؛ لِأَنَّهم إِنَّما يدعون إلى ما يُشَاكلهم مِن اتِّبَاع الهَوَى وَالغَفْلة عن ذِكْر الله.

وَالغَفْلةُ عَن ذِكْر الله والدَّار الآخرة مَتَّى تَزَوَّجَت بِاتِّباع الهَوَى، تَوَلَّدَ بَيْنهما كُلُّ شَرٍّ، وَكَثِيرٌ مَا يقترن أحدهما بالآخر ولا يُفارقه.

وَمَنْ تَأَمَّل فسادَ أحوال العَالَم - عمومًا وخصوصًا -، وَجَده نَاشِئًا عن هذيْن الأصليْن؛ فَالغفلة تَحُول بين العبد وبين تَصَوُّر الحقِّ ومعرفته والعلم به؛ فيكون من الضَّالِّين، وَاتِّباعُ الهَوَى يَصُدُّه عن قَصْد الحَقِّ وَإِرادته وَاتِّبَاعه؛ فيكون من المغضوب عليهم.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذَكَر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أَوَّل ما ذَكَر في هذه الرِّسالة: دعاء الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأخيه المُرسَل إليه؛ بأَنْ يُحسِن إليه الله عَزَّوَجَلَّ (في الدُّنْيا والآخرة)، وَأَنْ (ينفع به ويجعله مُباركًا أينما كان).

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ (بَرَكَةَ الرَّجُلِ: تعليمه للخير حيث حَلَّ، ونُصْحُه لِكُلِّ مَن اجتمع به)؛ وهذه هي المرتبة الَّتي تَبَوَّأها المسيح عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، كما قال: (﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١]؛ أي مُعَلِّمًا للخير، دَاعيًا إلى الله، مُذَكِّرًا به، مُرَغِّبًا في طاعته)؛ فهذه بَركةُ الرَّجُل؛ فليست بَرَكتُه دِرهمُه وديناره، ولا قوله وبيانه، وإنَّما بَرَكتُه: تعليمُ الخير، وهدايةُ النَّاس إلى الحَقِّ.

وإِذَا خَلا العبد من هذه البَركة فَقد (مُحِقَت بَرَكَةُ لِقائه والاجتماع به)، وضَاع على لاقِيه من الخير الشَّيءُ الكثيرُ، وأَثَّر على صُحبته لمثل هؤلاء؛ فضاع عليه وقتُه وفَسَد عليه قلبُه.

ثُمَّ ذَكَر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى قاعدةً نافعةً؛ وهي أَنَّ (كُلَّ آفةٍ تَدخل على العبد فَسَبَبها: ضَياع الوقتِ، وفساد القلب).

ومن هنا قال مَنْ قال مِمَّن مضى: (نَفْسُك إِنْ لَم تشغلها بِالطَّاعة؛ شَغَلَتك بالمعصية)؛ وهذا أشار به إلى فساد القلب.

وقال أيضًا: (الوقت كالسَّيف؛ إِنْ لم تقطعه قَطَعَك)؛ فأشارَ بذلك إلى ضياع الوقت.

فَكُلُّ آفةٍ تسري إلى العبد في نفسه: فإنَّها من ضَياعِ وقته، وفَساد قلبه.

وإذ استحْكَم هذا فِي حَقِّ العبد ضَاع عليه (حَظُّه من الله - تعالى -) ونَقَصت درجته.

ومن هنا كان السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى يعنون بحِفْظ أوقاتِهم واغتنام أعمالهم بما يُقَرِّبهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ صيانةً لقُلوبِهم، وحِرْصًا على حَظِّهم من رَبِّهم، كما مَرَّ في كتاب «حِفْظ العُمر» لأبي الفَرَج ابن الجَوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

ثُمَّ نَقَل وَصِيَّةً نافعةً عن (بعض الشُّيوخ) الصَّالحين؛ إذ قال: (احْذَروا مُخَالطة مَنْ تُضَيِّع مُخالطته الوقت، وتُفسِد القلب؛ فَإِنَّه متى ضاع الوقتُ وفَسَد القلْب انْفَرطتْ على العبد أمورُه كلُّها، وكان مِمَّنْ قال الله فيه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾ [الكهف:٢٨]).

فإذا ضاع وقت الإنسان وفَسَد قلبُه؛ ضَاع عليه حَظُّه من رَبِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكان أَمره فُرُطًا، غير مُستغنِمٍ للحسنات، ولا مُسْتَقِلٍّ من السَّيِّئات.

ثُمَّ ذَكَر ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: أَنَّ حال أكثر الخَلْق هو على هذا الوجه؛ مِمَّن غَفَل قلبه عن ذِكْر الله، واتَّبع هواه (وصارت أمورهم ومصالحهم ﴿فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]؛ أي فَرَّطُوا فِيمَا يَنْفعهم وَيَعُود عليهم بِصَلَاحِهم، وَاشْتَغَلوا بِما لا ينفعهم، بل) ربَّما بما عاد عليهم بالضَّرَر العاجل والآجل.

(وهؤلاء قد أَمَرَ الله - سبحانه - رَسولَه) بأنْ لا (يُطِيعهم)؛ فمِن طاعة الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اتِّباعه في هذا، والوصيَّة بوصيَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الَّتي أوصاه إيَّاها بِأَنْ لا يميل إلى هؤلاء.

ثُمَّ ذَكَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أَنَّ (الغَفْلَةَ عَن ذِكْر الله والدَّار الآخرة مَتَّى تَزَوَّجت بِاتِّباع الهَوَى، تَوَلَّدَ بَيْنهما كُلُّ شَرٍّ، وَكَثِيرٌ مَا يقترن أحدهما بالآخر ولا يُفارقه)، فبِئس الزَّوْجَان هما.

(وَمَنْ تَأَمَّل فسادَ أحوال العَالَم - عمومًا وخصوصًا -، وَجَده نَاشِئًا عن هذيْن الأصليْن): إِمَّا الغفلة عن ذِكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإِمَّا اتِّباع الهَوَى.

(فَالْغَفلة تَحُول بين العبد وبين تَصَوُّر الحق ومعرفته والعِلْم به؛ فيكون) ضَالًّا لا عِلْم عنده، كما كانت حال النَّصارى الَّذين عَمِلوا لله عَزَّوَجَلَّ بغير عِلْمٍ فكانوا ضُلَّالًا.

وأَمَّا اتِّباع الهَوى فإنَّه يَصُدُّ (عن قَصْد الحَقِّ)، ويمنع من (إِرادته وَاتِّبَاعه؛ فيكون) العبد (من المغضوب عليهم) كحال اليهود؛ الَّذين كان عندهم عِلْمٌ من الحَقِّ، لكنَّهم اتَّبعوا أهواءهم ورَكبوا في سُفن الهَوى، فبَعُدت بينهم وبين اتِّباع الشَّريعة؛ فصَاروا مغضوبًا عليهم.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وأَمَّا المُنْعَم عليهم فَهُم الَّذين مَنَّ الله تعالى عليهم بمعرفة الحَقِّ عِلْمًا، وَبِالانْقِيَاد إليه وإِيثاره على ما سِواه عَمَلًا.

وهؤلاء هُم الَّذين على سَبيل النَّجاةِ، ومَنْ سِوَاهم على سبيل الهَلاك.

وَلِهَذا أَمَرَنا الله - سبحانه - أن نقول كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلةٍ عِدَّة مَرَّاتٍ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة].

فَإِنَّ العَبْد مُضطرٌّ كُلَّ الاضطرار إلى أن يكون عَارِفًا بما ينفعه فِي مَعاشه ومَعاده، وَأَنْ يكون مُؤْثِرًا مُرِيدًا لِمَا يَنْفعه، مُجْتَنِبًا لِمَا يَضُرُّه.

فَبمجموع هذيْن يكون هُدِي إِلى الصِّرَاط المُستقيم.

فَإِنْ فَاتَه معرفة ذلك سَلَك سبيلَ الضَّالِّين، وَإِنْ فاته قَصْده وَاتِّبَاعه سَلَك سبيلَ المغضوب عليهم.

وَبِهذا يُعرف قَدْرُ هذا الدُّعَاء العَظِيم وَشِدَّةُ الحاجة إليه، وتَوَقُّفُ سعادة الدُّنيا والآخرة عليه.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذَكَر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هنا براءةَ المُنعَم عليهم من هاتين العِلَّتَيْن؛ فَإِنَّ هاتيْن العِلَّتيْن - وهُما الغفلة، واتِّباع الهَوَى - حَظُّ المغضوب عليهم والضَّالِّين، قدِ اقتسموها

بينهم.

(أَمَّا الْمُنْعَم عليهم) مِمَّنْ هَداهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فهؤلاء قد دَلَّهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إلى الحَقِّ، فقَدَّموه على كُلِّ شيءٍ؛ فسَلِموا من اتِّباع الهَوَى.

وأَعانَهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على العمل بالعِلم؛ فكانوا مُقيمين له غير غافلين؛ فَسَلِموا من مَعَرَّة الضَّلال.

فكانوا جامعين بين هذين المَطْلَبَيْن العظيمَيْن، قد عرفوا ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، ثُمَّ آثروا هذا الَّذي عرفُوه على كُلِّ شيءٍ، فحصل لهم بذلك سلوك الصِّراط المستقيم؛ وصاروا من المُنعَم عليهم؛ الَّذين وَصَفهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بقوله: (﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة]).



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَالعَبْد مُفْتَقِرٌ إلى الهداية فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَنَفَسٍ، في جميع ما يأتيه وَمَا يَذَره؛ **فَإِنَّه بين أُمورٍ لَا يَنْفَكُّ عنها:**

أحدها: أمورٌ قد أتاها على غير وجه الهداية جَهْلًا؛ فَهُو مُحْتَاجٌ إِلَى أَنْ يَطْلُبَ الهِدَاية إلى الحَقِّ فيها.

أو يكون عَارفًا بالهداية فيها، فَأَتَاها على غير وجهها عَمْدًا؛ فَهو مُحْتَاجٌ إلى التَّوبة منها.

أو أمورٌ لم يعرف وجه الهداية فيها لا عِلْمًا وَلَا عَمَلًا؛ فَفَاتته الهِداية إلى عِلْمها ومعرفتِها، وَإِلى قَصْدِها وَإرادتها وَعَمَلِها.

أَو أمورٌ قد هُدِي إليها من وجهٍ دون وجهٍ؛ فَهو مُحْتَاجٌ إِلَى تمام الهداية فيها.

أو أمورٌ قد هُدِي إلى أصلها دون تفاصيلها؛ فهو مُحتاجٌ إلى هداية التَّفصيل.

أو طريقٌ قد هُدِي إليها، وهو مُحْتاجٌ إلى هدايةٍ أخرى فيها، فالهداية إلى الطَّريق شيءٌ والهداية في نفس الطَّريق شيءٌ آخر، أَلَا ترى أَنَّ الرَّجُلَ يعرف أَنَّ طريق البلد الفلانِيِّ هو طريق كذا وكذا، ولكن لا يُحْسِن أَنْ يَسلكه، فَإِنَّ سُلُوكه يحتاج إلى هدايةٍ خَاصَّةٍ فِي نَفْس السُّلُوك، كالسَّيْر في وقت كذا دون وقت كذا، وأَخْذ الماء في مَفازة كذا مقدار كذا، والنُّزُول فِي موضع كذا دون كذا.

فهذه هدايةٌ في نَفْس السَّيْر قد يُهمِلها مَنْ هُو عَارِفٌ بِأَنَّ الطَّرِيق هي هذه فيهلك ويَنقطع عن المقصود.

وكذلك أيضًا ثَمَّ أُمورٌ هو مُحْتَاجٌ إلى أن يحصل له فيها من الهداية في المستقبَل مثل ما حصل له في الماضي.

وأمورٌ هو خالٍ عن اعتقاد حَقٍّ أو باطلٍ فيها؛ فهو مُحْتَاجٌ إلى هداية الصَّوَاب فيها.

وأُمُورٌ يعتقِد أَنَّه فيها على هُدًى وهو على ضَلالةٍ ولا يشعر؛ فهو محتاجٌ إلى انتقاله عن ذلك الاعتقاد بِهدايةٍ من الله.

وأُمورٌ قد فَعَلَها على وجه الهداية، وهو مُحتَاجٌ إلى أن يهدي إليها غيرَه ويُرشدَه وينصحه، فإهمالُه ذلك يُفوِّت عليه من الهداية بِحَسَبِهِ كما أنَّ هدايته للغير وتعليمه ونُصحَه يفتح له باب الهداية؛ فَإِنَّ الجزاءَ مِن جنس العمل؛ فَكُلَّما هَدَى غيره وعَلَّمه هداه الله وَعَلَّمه فيصير هاديًا مهديًا، كما في دعاء النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الَّذي رواه التِّرمذيُّ وغيره: «**اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ، غَيْرَ ضَالِّينَ وَلَا مُضِلِّينَ، سِلْمًا لأَوْلِيَائِكَ، حَرْبًا لِأَعْدَائِكَ، نُحِبُّ بِحُبِّكَ مَنْ أَحَبَّكَ، وَنُعَادِي بِعَدَاوَتِكَ مَنْ خَالَفَكَ**».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذَكَر المُصَنِّف رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى في هذه الجُملةِ: مَنْفعة تَكرار الدَّاعي في كُلِّ صَلَاةٍ مِن أَهْلِ الإِسْلَام بقوله: (﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الفاتحة]).

وقد أشار إلى نحو هذا المعنى - الَّذي ذكره المُصَنِّف - شَيْخه ابن تيميَّةَ في مواضعَ

من كُتِبه، وتلميذُه ابن رجبٍ في مواضعَ من كُتبه، والمُصَنِّف نفسُه في «مدارج السَّالكين» وغيرِها من تصانفيه، إِلَّا أَنَّ عبارته هنا أَشْفَى وأكملُ بيانًا.

فَذَكر أَنَّ (العَبْد) يفتقر إلى هداية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ (في كُلِّ لَحْظَةٍ وَنَفَسٍ)، وأَنَّ الهداية العامَّة الَّتي حَظِي بها - من الدُّخول في الإسلام - لا تُغنيه عن تَفَاريد الهِدايةِ وتفاصيلِها في مقاماتٍ عِدَّة:

(**أحدها**: أمورٌ قد أتاها على غير وجه الهداية جَهْلًا؛ فَهُو مُحْتَاجٌ إِلَى أَنْ يَطْلُبَ الهِدَاية إلى الحَقِّ فيها).

ومنها: أَنْ (يكون عَارفًا بالهداية فيها، فَأَتَاها على غير وجهها عَمْدًا؛ فَهو مُحْتَاجٌ إلى التَّوبة منها).

ومنها: (أمورٌ لم يعرف وجه الهداية فيها لا عِلْمًا وَلَا عَمَلًا؛ فَفَاتته الهِداية إلى عِلْمها ومعرفتِها، وَإِلى قَصْدِها وَإرادتِها وَعَمَلِها).

أَوْ (أمورٌ قد هُدِي إليها من وجهٍ دون وجهٍ؛ فَهو مُحْتَاجٌ إِلَى تمام الهداية فيها).

أَوْ (أمورٌ قد هُدِي إلى أصلها دون تفاصيلها؛ فهو مُحتاجٌ إلى هداية التَّفصيل).

أَوْ (طريقٌ قد هُدِي إليها، وهو مُحْتاجٌ إلى هدايةٍ أخرى فيها، فالهداية إلى الطَّريق شيءٌ والهداية في نفس الطَّريق) يعني إلى تفاصيل الطَّريق (شيءٌ آخر).

(وكذلك أيضًا ثَمَّ أُمورٌ هو مُحْتَاجٌ إلى أن يحصل له فيها من الهداية في المستقبَل مثل ما حصل له في الماضي).

وهناك (أمورٌ هو خالٍ عن اعتقاد حَقٍّ أو باطلٍ فيها؛ فهو مُحْتَاجٌ إلى هداية الصَّوَاب

فيها).

وَثَمَّ (أُمُورٌ يعتقِد أَنَّه فيها على هُدًى وهو على ضَلالةٍ ولا يشعر؛ فهو محتاجٌ إلى انتقاله عن ذلك الاعتقاد بِهدايةٍ من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ).

وهناك (أُمورٌ قد فَعَلَها على وجه الهداية، وهو مُحتَاجٌ إلى أن يهدي إليها غيرَه ويُرشدَه وينصحه، فإهمالُه ذلك يُفوِّت عليه من الهداية بِحَسَبِهِ).

فهذه مقاماتٌ عظيمةٌ من المراتب والمقامات الَّتي يحتاج العبد فيها إلى هداية الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا فإنَّ العبد مُفتقِرٌ إلى هداية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في كُلِّ نَفَسٍ من أنفاسِه، وتَحْريكةٍ من تحريكاته؛ لأَنَّ العبدَ إذا لم تكن له هدايةٌ من الله عَزَّوَجَلَّ خُذِل.

ولهذا؛ ثَبَت عند البَزَّار بسندٍ صحيحٍ أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان من دعائه: «**اللَّهُمَّ لَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ**»، فكان من دعاء النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنْ لا يُوكَل إلى نفسه طَرفةَ عينٍ؛ لأَنَّه إذا وُكِل إلى نفسه طَرْفةَ فُقِد هداية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وعند ذلك كان العبد على شَفا هَلَكة أن يُخْذَل لِفُقدانه الهِداية في شأنٍ من شؤونه.

ولذلك؛ كان العبد مأمورًا بأنْ يُرَدِّد دائمًا سؤال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بِهدايته؛ لِتشمل الهِداية كُلَّ مقامٍ من هذه المَقامات العظيمة.

ثُمَّ ذَكَر المُصَنِّف رَحِمَهُٱللَّهُ أَنَّ هِدَاية الْعَبد لغيره ونُصحه إيَّاه يَفتح له باب الهِداية؛ فَإِنَّ الجزاء من جنس العمل.

فَإِنَّ الَّذي يتصدَّى لهداية النَّاس وتعليمهم ودِلالتهم، يفتح الله عَزَّوَجَلَّ له أبوابًا من العِلم والخير والهِداية؛ فيكون (هاديًا مهديًّا)؛ كما جاء في الدُّعاء (الَّذي رواه التِّرمذيُّ

وغيره)؛ أَنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ دعَا: («**اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ، غَيْرَ ضَالِّينَ وَلَا مُضِلِّينَ...**») إلى آخره.

وهذا الدُّعاء مُرَكَّبٌ من حديثيْن مختلفيْن لا يَسلَمان من ضَعْفٍ.

والأَشْبه أَنَّ أَوَّله - من الدُّعاء بزينة الإيمان والجَعْل بكونه هاديًا مَهديًّا - يُحَسَّن دون تمام الحديث.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَقد أَثْنَى الله – سبحانه – على عباده المؤمنين الَّذين يسألونه أن يجعلهم أئمَّةً يُهْتَدى بِهم؛ فقال تعالى في صفات عباده: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤﴾ [الفرقان].

قال ابن عبَّاسٍ: «يُهْتَدى بنا في الخير».

وقال أبو صالحٍ: «يُقتَدى بِهُدَانا».

وقال مكحولٌ: «أَئِمَّةً في التَّقْوى، يَقْتَدِي بِنَا المُتَّقون».

وقال مجاهدٌ: «اجْعَلنا مُؤْتَمين بِالمُتَّقِين، مُقْتَدِين بِهم»، وأشكل هذا التَّفسير على مَنْ لم يَعْرف قَدْر فَهْم السَّلَفِ وعُمْق عِلْمِهم، وقال: يجب أن تكون الآيةُ على هذا القول من باب المقلوب، على تقديرِ: (وَاجْعَل المُتَّقين لنا أئمَّةً)؛ ومعاذ الله أَنْ يكونَ شَيءٌ مَقْلُوبًا على وجهه.

وهذا من تمام فَهْم مجاهدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فَإِنَّه لا يكون الرَّجل إمامًا للمُتَّقِين حَتَّى يَأْتَمَّ بِالمتَّقِين؛ فَنَبَّه مُجاهدٌ على هذا الوجه الَّذي ينالون به هذا المطلوب؛ وهو اقتداؤهم بالسَّلف المُتَّقِين من قبلهم، فيجعلهم الله – سبحانه – أئمَّةً للمتَّقين مِن بعدِهم.

وهذا مِنْ أَحْسَن الفَهْم فِي القرآن وَأَلْطَفِه، ليس من باب القَلْب في شيءٍ؛ فَمَنِ ائْتَمَّ بِأهلِ السُّنَّةِ قَبْله؛ ائْتَمَّ بِه مَنْ بَعْده وَمَنْ معه.

وَوَحَّد اللهُ – سبحانه – لفظ ﴿إِمَامًا﴾، ولم يَقُل: (وَاجْعَلْنا لِلمُتَّقين أَئِمَّةً).

فقيل: (الإمام) فِي الآية جَمْع (آمٍّ)، نحو (صَاحِبٍ وَصِحَابٍ)؛ وهذا قول الأخفش؛ وفيه بُعْدٌ، وليس هو من اللُّغة المشهورة المُسْتَعمَلَةِ المَعروفةِ حَتَّى يُفَسَّر بِها كلام الله.

وقال آخَرُون: (الإمام) هنا مَصْدرٌ لَا اسْمٌ؛ يُقال: (أَمَّ إِمامًا)، نحو: (صَامَ صِيَامًا)، و(قام قِيَامًا)؛ أي اجْعَلْنا ذَوِي إمامٍ؛ وهذا أضعف من الَّذي قبله.

وقال الفَرَّاء: إِنَّمَا قال: ﴿إِمَامًا﴾، ولم يَقُل: (أئمَّةً)، على نحو قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشُّعراء:١٦]، ولم يَقُل: (رَسُولَا رَبِّ العالمين)؛ وهو مِنْ الواحد المراد به الجمع، نحو قول الشَّاعر:

يَا عَاذِلَاتِي لَا تُرِدْنَ مَلَامَتِي ... إِنَّ الْعَوَاذِلَ لَيْسَ لِي بِأَمِيرِ

أَيْ لَيس لي بِأُمراءَ.

وهذا أحسن الأقوال، غير أنَّه يحتاج إلى مزيد بيانٍ، وهو أَنَّ المُتَّقين كُلُّهم على طريقٍ واحدٍ، وَسبيلٍ واحدٍ، وأَتْبَاع كتابٍ واحدٍ، ونَبِيٍّ واحدٍ، وعَبِيدُ ربٍّ واحدٍ؛ فَدِينهم واحدٌ، وَنَبِيُّهم واحدٌ، وكتابُهم واحدٌ، ومعبودهم واحدٌ؛ فَكَأَنَّهم كُلُّهم إمامٌ واحدٌ لِمَنْ بَعْدَهم، ليسوا كَالأَئِمَّة المُخْتَلِفين الَّذين قَد اختلفت طرائقهم، ومذاهبهم، وعقائدهم، فَالائتِمَام إِنَّمَا هو بِما هُم عليه، وهو شيءٌ واحدٌ، وهو الإمام في الحقيقة.

قَال الشَّارِحُ وفَّقَه الله:

لَمَّا ذَكَر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: أَنَّ من توفيق العبد أَنْ يُيَسِّره للسَّعْي فِي هِداية النَّاس وتعليمِهم الخير، وأَنَّ ذلك سببٌ مِن أسباب الاهتداء - لأَنَّ الجزاء من جنس

العمل -؛ ذَكَر ثناء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ (على عباده المؤمنين، الَّذين يسألونه) في دعائهم (أَنْ يجعلهم أئمَّةً) للمُتَّقين؛ كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: (﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان]).

ثُمَّ ذَكَر من كلام السَّلف رَحِمَهُمُٱللَّهُ تعالى في تفسيرها:

- قولَ (ابن عبَّاسٍ: «يُهْتَدى بنا في الخير»).

- وقول (أبي صالحٍ) الزَّيَّات: («يُقتَدى بِهُدَانا»).

- وقول (مكحولٍ: «أَئِمَّةً في التَّقْوى، يَقْتَدِي بِنَا المُتَّقون»).

وكلُّ هذه الأقوالِ مؤتلفةٌ على معنًى واحدٍ.

ثُمَّ ذَكَر قول (مجاهدٍ:)؛ وهو: («اجْعَلنا مُؤْتَمِين بِالمُتَّقِين، مُقْتدِين بِهِم»).

وقد زَعَم بعض أهل العربيَّة أَنَّ هذا من التَّفسير بالمقلوبِ؛ فأصل الآية المتقدِّمة: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان]؛ أي أنْ يكون الدَّاعي إمامًا للمُتَّقِين، وفي تفسير مجاهدٍ: أنْ يكون الدَّاعي مُؤتَمًّا بالمُتَّقين؛ فزعم هذا القائل: أَنَّ هذا قَلْبٌ في التَّفسير!

وقد أبطل ابن القَيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى هذه المَقالة؛ بأَنَّ (هذا من تمام فَهْم مجاهدٍ رَحِمَهُٱللَّهُ؛ فإنَّه لا يكون الرَّجل إمامًا للمُتَّقِين حَتَّى يَأْتَمَّ بالمتَّقِين)؛ وهذا هو الَّذي قَصَده مجاهدٌ رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى؛ فإنَّ مِن شروط إمامة المُتَّقين: أَنْ يكون الرَّاغبُ فيها سائرًا على طريق المتَّقين، مُقْتَدِيًا بِهم، مُؤتَمًّا بما كانوا عليه؛ لأنَّ طريقهم واحدٌ.

ثُمَّ ذَكَر أَنَّ (هذا مِنْ أَحْسَن الفَهْم فِي القرآن وَأَلْطَفِه)، و(ليس من باب القَلْب في شيءٍ؛ فَمَنِ ائْتَمَّ بِأهلِ السُّنَّةِ قَبْله؛ ائْتَمَّ به مَنْ بَعْده وَمَنْ معه).

ثُمَّ ذَكَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى النُّكْتَة في تَفريد كلمة (إمامٍ): فَلَم يَقُل الله عَزَّوَجَلَّ: (وَاجْعَلْنا لِلمُتَّقين أَئِمَّةً)، وإنَّما قال: (﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان])؛ **فَذَكَر في ذلك ثلاثة أقوالٍ لأهل العربيَّة:**

أَوَّلها: أَنَّ (الإمام فِي الآية جَمْع (آمٍّ)، نحو صَاحِبٍ وَصِحَابٍ)، ورَجُلٍ ورِجَالٍ؛ (وهذا قول الأخفش؛ وفيه بُعْدٌ) كما قال؛ ذلك أَنَّه ليس وَفْق اللُّغة الشَّائعة الفَاشِيَة المَعروفةِ في كلام العرب.

ومن قواعد التَّفسير: أَنَّ كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحمَل في تفسيره على (اللُّغة المشهورة المُسْتَعمَلةِ المَعروفةِ)، لا على اللُّغة القليلة النَّادرة المهجورة.

ثُمَّ ذَكَر قولًا ثَانِيًا عن بعض أهل العلم؛ وهو أَنَّ ((الإمام) هنا مَصْدرٌ لَا اسْمٌ؛ يُقال: (أَمَّ إمامًا)، نحو: (صَامَ صِيَامًا)، و(قام قِيَامًا)؛ أي اجْعَلْنا ذَوِي إمامٍ؛ وهذا أضعف من الَّذي قبله)؛ وذلك لافتقاره إلى التَّقدير، **والأصل**: أَنَّ الكلام لا يُحمَل على التَّقدير ما لم يكن ثَمَّ قرينةٌ حامِلةٌ عليه؛ فقولهم هنا يقتضي تقدير: (اجْعَلْنا ذَوِي إمامٍ)، **والأصل**: عدم التَّقدير إِلَّا بِقرينةٍ.

ثُمَّ ذَكَر قولًا ثالثًا؛ وهو أَنَّ المفرد هنا قُصِد به الجنس؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في حَقِّ موسى وهارون: (﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشُّعراء:١٦]، ولم يَقُل: (رَسُولَا رَبِّ العالمين))؛ فهذا واحدٌ أُرِيدَ به الجَمع، وهذا قَول (الفَرَّاء)، وهو (أحسن الأقوال) كما اختاره ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

فيكون معنى هذه الآية: (أَنَّ المُتَّقين كُلُّهم على طريقٍ واحدٍ، وَمعبودٍ واحدٍ، وأَتْبَاع

كتابٍ واحدٍ، ونَبِيٍّ واحدٍ، وعَبِيدُ ربٍّ واحدٍ؛ فَدِينهم واحدٌ، وَنَبِيُّهم واحدٌ، وكتابُهم واحدٌ، ومعبودهم واحدٌ)، وقِبْلتُهم واحدةٌ؛ (فَكَأَنَّهم كُلُّهم إمامٌ واحدٌ لِمَنْ بَعْدَهم، ليسوا كَالأَئِمَّة المُخْتَلِفين الَّذين قَد اختلفت طرائقهم، ومذاهبهم، وعقائدهم).

فيكون هذا من قَبيل المفرد الَّذي أُطْلِق وأُرِيدَ به الجمع.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فصلٌ

وقد أخبر - سبحانه - أنَّ هذه الإمامة إِنَّمَا تُنَالُ بِالصَّبْرِ واليقين؛ فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة]؛ فَبِالصَّبْرِ وَاليَقين تُنَال الإمامة في الدِّين.

فقيل: بالصَّبْر عن الدُّنيا.

وقيل: بالصَّبْر على البلاء.

وقيل: بالصَّبْر عن المَناهي.

والصَّوَاب: أَنَّه بِالصَّبْر عن ذلك كلِّه؛ بِالصَّبْر على أداء فرائض الله، والصَّبْر عَن مَحَارمه، والصَّبْر على أَقْداره.

وَجَمَع - سبحانه - بين الصَّبر واليقين؛ إِذْ هما سعادةُ العَبد، وَفَقْدُهما يُفْقِدُه سعادته.

فَإِنَّ القلب تَطْرُقه طَوَارِق الشَّهَوات المُخَالِفَة لِأَمْرِ الله، وطوارق الشُّبَهات المُخَالِفة لخبره؛ فَبِالصَّبر يَدفع الشَّهَوات، وَبِاليَقين يدفع الشُّبَهات.

فَإِنَّ الشَّهْوة وَالشُّبْهَة مُضَادَّتَان للدِّين من كلِّ وجهٍ؛ فَلَا يَنْجو مِن عذابِ الله إِلَّا مَنْ دَفَع شَهَواتِه بِالصَّبْر، وشُبَهَاتِه بِاليقين.

ولذلك أَخْبَرَ - سبحانه - عن حُبُوطِ أعمال أهل الشُّبُهات والشَّهَوات؛ فقال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا

بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾[التوبة:٦٩]؛ فَهذا الاستمتاع بالخَلَاق هو استمتاعهم بنصيبهم من الشَّهوات.

ثُمَّ قال: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾[التوبة:٦٩]؛ وهذا هو الخَوْض بالباطل في دِين الله، وهو خَوْض أهل الشُّبُهات.

ثُمَّ قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[التوبة:٦٩]؛ فعَلَّق - سبحانه - حبوط الأعمال والخُسْران بِاتِّباع الشَّهَوات الَّذي هو الاستمتاع بِالخَلاق، وَبِاتِّبَاع الشُّبهات الَّذي هو الخوض بالباطل.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

بعد أَنْ بَيَّن المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى - في الجملة الفائِتة - أَنَّ المؤمنين يدعون رَبَّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِأَنْ يُوَفِّقهم للإمامة في الدِّين؛ ذَكَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى (أَنَّ هذه الإمامة إِنَّمَا تُنَالُ بِالصَّبْر واليقين؛ فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[السجدة]؛ فَبِالصَّبْر وَاليَقين تُنَال الإمامة في الدِّين).

وأقدم مَنْ نُقِلَت عنه هذه الكلمةُ هو أبو محمَّد سفيانُ بن عُيَيْنَةَ الهِلاليُّ؛ فإنَّه كان يقول: (بالصَّبر واليقين تُنال الإمامةُ في الدِّين)؛ وقد استنبطها من آية السَّجدة: (﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[السجدة]).

ثُمَّ ذَكَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى الخلاف فِي تعيِين الصَّبر: أهو الصَّبر عن الدُّنيا، أَمْ الصَّبر على البلاء، أَمْ الصَّبر عن المَناهي؟

(**والصَّوَاب**) - كما قال -: (أَنَّه بِالصَّبْر عن ذلك كلِّه؛ بِالصَّبْر على أداء فرائض الله، والصَّبْر عَن مَحَارمه، والصَّبْر على أَقْداره).

وأَجمع من هذا: أَنْ يُقال: إِنَّ **حقيقة الصَّبرِ** هو حَبْس النَّفس على أَمْر الله.

وأَمْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ينقسم إلى قسمين:

- **أحدهما**: **الأمر الكونِيُّ**؛ الَّذي هو الأقدار المُؤلِمة.
- **والثَّانِي**: **الأمر الشَّرعيُّ**؛ الَّذي هو الأمر والنَّهي.

فيُؤمَر العَبد بِأَنْ يصبِر على أقدار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فلا يَتَسَخَّطَها.

وأَنْ يصبر على الفرائض؛ فيأتيها.

وعن المَناهي؛ فيتركَها.

فإِذا كان كذلك كان عبدًا صابرًا صبورًا.

ثُمَّ إِنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جَمَع فِي هذه الآية (بين الصَّبر واليقين)؛ لأَنَّهما (سعادةُ العَبد، وَفَقْدُهما يُفْقِدُه سعادته).

وذلك أَنَّ أمراض القلب - كما ذَكَر شيخ الإسلام ابن تَيميَّةُ، وصاحبُه ابن القيِّم، ثُمَّ ابن رجبٍ فِي آخرين - **إِنَّما تنشأ من عِلَّتَيْن اثنتين:**

- **إحداهما**: العِلل الَّتي تنشأ من الشَّهوات.
- **والأخرى**: العِلل الَّتي تنشأ من الشُّبهات.

فَعِلل الشَّهوات تُدفَع بالصَّبر، وعِلل الشُّبهات تُدفَع باليقين؛ وهذا هو السِّرُّ فِي اقتران هاتين الكلمتين إحداهما بالأخرى؛ وذلك أَنَّهما دَواءان لداءين عظيميْن؛ فبِالصَّبر تُدفَع أدواء الشَّهوات، وباليقين تُدفَع أدواء الشُّبهات.



قَال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فصلٌ

وَكَمَا أَنَّه - سبحانه - عَلَّق الإمامة في الدِّين بِالصَّبر واليقين **فالآية مُتَضَمِّنَةٌ لأصليْن آخرَين:**

أحدهما: الدَّعْوَة إِلى الله وهداية خَلْقِه.

الثَّاني: هدايتهم بِمَا أَمَرَ به على لسان رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لَا بِمُقتضى عقولهم، وآرائهم، وسياساتِهم، وأذواقهم، وتقليد أسلافهم بغير برهانٍ من الله؛ لِأَنَّه قال: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ...﴾ [السَّجدة:٢٤].

فهذه أربعة أصولٍ تَضَمَّنَتْها هذه الآية:

أحدها: الصَّبر؛ وهو حَبْس النَّفْس عن مَحَارم الله، وَحَبْسُها على فرائضه، وَحَبْسُها عن التَّسَخُّط والشِّكَاية لأقداره.

الثَّاني: اليقين؛ وهو الإيمان الجازم الثَّابت - الَّذي لا ريب فيه، ولا تَرَدُّد ولا شَكَّ ولا شُبْهَةَ - بخمسة أصولٍ؛ ذكرها سبحانه في قوله - تعالى -: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة:١٧٧]، وفي قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦]، وفي قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥].

والإيمان باليوم الآخر داخلٌ في الإيمان بالكُتب والرُّسل.

وقد جَمَع النَّبيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بينهما في حديث عمرَ، في قوله: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِه، وَالْيَوْمِ الآخِرِ**».

فهذه الأصول الخمسة مَنْ لم يُؤمن بِها فَلَيس بمؤمنٍ.

واليقين: أَنْ يقوم الإيمانُ بِها حَتَّى تصير كَأَنَّها مُعَايَنَةٌ للقلب مُشَاهَدَةٌ له، نِسْبتُها إلى البصيرة كَنِسبة الشَّمْس والقمر إلى البصر.

ولهذا قال مَنْ قال من السَّلف: (اليقين: الإيمان كُلُّه).

الثَّالث: هداية الخَلْق ودَعْوتُهم إلى الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت]. قال الحسن البصريُّ: «هذا حبيب الله، هذا وليُّ الله، أَسْلم لله، وعَمِل بطاعته، ودَعَا الخَلْق إليه»، فهذا النَّوع أفضلُ أنواع الإنسان، وأعلاهم درجةً عند الله يوم القيامة.

وَهُم ثُنْيَةُ[1] الله - سبحانه - من الخاسرين، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر]، فَأَقْسَم - سبحانه - على خُسران نوع الإنسان، إِلَّا مَنْ كَمَّل نفسه بالإيمان والعمل الصَّالح، وكَمَّل غيره بِوَصِيَّته له بِهما؛ ولهذا قال الشَّافعيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى: «لو فكَّر النَّاس كُلُّهم في سورة العصر لَكَفَتْهم».

---

(١) أي الَّذين استثناهم الله عَزَّوَجَلَّ.

ولا يكون اتِّباع الرَّسول على الحقيقة إِلَّا مَنْ دَعَا إلى الله على بصيرةٍ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف:١٠٨]، فقوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ تفسيرٌ لـ(سبيله) الَّتي هو عليها؛ فَسَبِيله وسبيل أَتباعه: الدَّعْوة إلى الله؛ فَمَنْ لَمْ يَدْعُ إلى الله فَلَيْس على سبيله.

وقوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، قال ابن الأعرابيِّ: «البَصيرة: الثَّبَات في الدِّين».

وقيل: (البصيرة: العِبرة)؛ كما يقال: (أَلَيْس لَكَ في كذا بصيرة؟)؛ أي عِبرةٌ.

قال الشَّاعر:

فِــي الــذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِيـــ ـــنَ مِــنَ الْقُــرُونِ لَنَــا بَصَــائِرُ

والتَّحقيق: أَنَّ العِبْرة ثَمَرةُ البصيرة؛ فَإِذا تَبَصَّر اعْتَبَر؛ فَمَنْ عُدِم البصيرة عُدِم العبرة؛ فكأنَّه لا بصيرةَ له.

وَأَصْل اللَّفظ: من الظُّهور والبيان؛ فـ(القُرآن بصائر)؛ أي أَدِلَّةٌ وَهُدى وبَيَانٌ يقود إلى الحَقِّ، ويَهْدي إلى الرُّشْد؛ ولهذا يُقال للطَّريقة من الدَّم الَّتي يُسْتَدَلُّ بِها على الرَّمِيَّةِ[1]: بصيرةً.

فَدَلَّت الآية أيضًا على أَنَّ مَنْ لم يكن على بصيرةٍ فليس مَنْ أَتْباع الرَّسُول، وَأَنَّ أَتْبَاعه هُم أُولو البصائر؛ ولهذا قال: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف:١٠٨]، فَإِنْ كان المعنى: (أدعو إلى الله أنا ومَنِ اتَّبعني)، ويكون ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ معطوفًا على الضَّمير المرفوع في

(١) يعني الَّتي يُستدلُّ بِها على مَسير الصَّيْد الَّذي رُمِي؛ فالدَّم الَّذي يسري بعد الصَّيد وهو يمشي يُسَمَّى (بصيرةً).

﴿أَدْعُوٓاْ﴾ - وحَسُنَ العطفُ لأجل الفصلِ - فهو دليلٌ على أنَّ أَتْباع الرَّسول هم الَّذين يدعون إلى الله وإلى رسوله.

وإن كان معطوفًا على الضَّمير المجرور في ﴿سَبِيلِيٓ﴾ - أي هذه سبيلي وسبيلُ مَنْ اتَّبعني - فكذلك.

وعلى التَّقديرين: فسبيله وسبيل أتباعه: الدَّعوة إلى الله.

الأصل الرَّابع: قوله: ﴿يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾[السَّجدة:٢٤]، وفي ذلك دليلٌ على وجوب اتِّبَاعهم مَا أَنْزَل الله على رسوله، وهدايتهم به وحده، دون غيره من الأقوال والآراء والنِّحَل والمَذاهب، بل لا يهدون إلَّا بِأَمْرِه خَاصَّةً.

فَحَصَل من هذا: أَنَّ أئمَّة الدِّين الَّذين يُقتدى بِهم هُم الَّذين جَمعوا بين الصَّبر واليقين والدَّعوة إلى الله بِالسُّنَّة والوَحْي لا بالآراء والبدع؛ فهؤلاء خُلفاء الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في أُمَّتِه، وَهُم خَاصَّته وأولياؤه، ومَنْ عَادَاهم أَو حَارَبَهم فَقَد عَادَى الله - سبحانه - وآذنه بالحرب.

قال الإمام أحمدُ رَحِمَهُٱللَّهُ في خطبة كتابه في الرَّدِّ على الجهميَّة:

(الحمد لله الَّذي جَعَل في كُلِّ زمانٍ فترةٍ من الرُّسُل جَمْعًا من العلماء يَدْعون مَنْ ضَلَّ إِلَى الهُدَى، ويَصْبِرون منهم على الأذى، يُحْيُون بكتاب اللهِ المَوتى، وَيُبَصِّرون بنور الله أهل العَمَى، فكَم مِن قَتيلٍ لإبليسَ قد أحيَوه، وكم مِنْ تَائهٍ قد هَدَوه، فَمَا أَحْسَنَ أَثَرَهم على النَّاس! وَمَا أَقْبَح أَثَر النَّاس عليهم! يَنْفون عن كتاب الله تحريفَ الغالِين، وانتحالَ المُبْطلين، وتأويلَ الجاهلين، الَّذين عَقَدوا أَلْوِيَة البدعة، وأطلقوا عَنان الفِتْنة، فَهُم

مختلِفون في الكتاب، مُخالِفون للكتاب، مُجْمِعون على مُفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علمٍ، يَتكَلَّمُون بِالمُتَشَابِه من الكلام، ويخدعون جُهَّال النَّاس بِمَا يُشَبِّهون عليهم، فَنَعُوذ بالله مِنْ فِتَن المُضِلِّين).

قَالَ الشَّارِحُ وفّقَهُ اللهُ:

ذَكَر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في هذا الفصل المُتَقَدِّم أَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَمَّا (عَلَّق الإمامة في الدِّين بِالصَّبر واليقين) **عَلَّقها أيضًا بأصليْن آخرَيْن:**

أحدهما: (الدَّعْوَة إلى الله).

والثَّاني: (هدايتهم بِمَا أَمَرَ) الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به؛ إذ قال: (﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ [السَّجدة:٢٤]).

فتَحَصَّل من مجموع ما سبق: أنَّ هذه الآية جاء فيها شَرْط (الإمامة في الدِّين) بِجَمْع هذه الأصول الأربعة:

وأوّلها: (**الصَّبر**)؛ **وحقيقته** - كما سَلَف -: حَبْس النَّفس على أَمْر الله القَدَري والشَّرْعي.

وثانيها: (**اليقين**)؛ **وحقيقته:** استقرار القلب بالحَقِّ.

وعِماد هذا الحَقِّ الَّذي يستقر به القلب: أصول الإيمان الخمسة المعروفة، وما بعدها من شرائع الدِّين؛ فهي تابعةٌ لها.

وثالثها: (هداية الخَلْق ودَعْوتُهم إلى الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؛ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: (﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت])؛ أي لا أَحْسَن قولًا مِمَّنْ كان على هذا الوَصْف.

وهؤلاء الدَّاعون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ (هُم ثُنْيَةُ الله تعالى من الخاسرين)؛ فقد كَتَب الله عَزَّوَجَلَّ لهم السَّعادة، واستثناهم من جِنس الإنسان الَّذين حَكَم الله عَزَّوَجَلَّ عليهم بالخُسران؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: (﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر]). ومعنى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: (﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾)؛ يعني أَمَروا بعضهم بعضًا بالمعروف، ونَهوا بعضهم بعضًا عن المنكر.

ثُمَّ ذَكَر تفسير قوله تعالى: (﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف]).

وذَكَر في تفسير (البصيرة) ما جاء عن (ابن الأعرابيِّ) أَنَّه (الثَّبَات في الدِّين).

ثُمَّ بَيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (التَّحقيق: أَنَّ العِبْرة ثَمَرةُ البصيرة)، وأَنَّ (**البصيرة**) في الأصل: هي إصابة الحقِّ ومعرفتُه؛ فإذا عَرَف الإنسان الحقَّ كانت العِبرةُ ثمرةً لهذه البصيرة فَاعْتبَر واتَّعظ.

ثُمَّ ذَكَر قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - كما سلف -: (﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف:١٠٨])، وذكَر خلاف أهل العلم في عَوْد الضَّمير في (﴿ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾) على ماذا هو معطوفٌ، فذَكَر قولَيْن، رَجَّح في كتابه «مِفتاح دار السَّعادة»

القول الأوَّل، وأَنَّ الجملة معطوفة (على الضَّمير المرفوع في ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾)؛ فمعنى الآية: (أدعو إلى الله أنا ومَنِ اتَّبعني)؛ يعني أَنَّ مَن اتَّبعني يدعو إلى الله كما أدعو، والنَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كان يدعو على بصيرةٍ؛ فمَنِ اتَّبع النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فإنَّه يدعو على بصيرةٍ.

ورابع الأصول: أَنَّ هؤلاء يدعون إلى الحَقِّ بِأَمر الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ أي بما أنزله على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فَهُم لا يدعون النَّاس بالآراء ولا بالبدع ولا بالأهواء، ولا بالعادات والأعراف، وإِنَّما يدعونَهم بالكتاب والسُّنَّة.

فإذا اجتمعت هذه الأصول الأربعة في العبد تَحقَّقت له الإمامة في الدِّين، فلا تُنال الإمامة في الدِّين إلَّا بالصَّبر، واليقين، والدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولُزوم ما جاء به النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فصلٌ

وَمِمَّا يَنبغي الاعتناء به عِلْمًا وَمَعْرِفَةً وَقَصْدًا وَإِرَادَةً: العِلْم بِأَنَّ كُلَّ إنسانٍ - بل كل حيوانٍ - إِنَّما يسعى فيما يُحصِّل له اللَّذة والنَّعيم وطِيب العَيْش، ويَنْدَفع به عنه أضداد ذلك.

وهذا مطلوبٌ صحيحٌ يتضمَّن سِتَّة أمورٍ:

أحدها: معرفة الشَّيء النَّافع لِلْعَبد، المُلائم له؛ الَّذي بحصوله له لَذَّتُه وَفَرَحُه وَسُرُوره وَطِيبُ عَيْشِه.

الثَّاني: مَعرفة الطَّريق المُوصِلَة إلى ذلك.

الثَّالث: سُلوك تِلْك الطَّرِيق.

الرَّابِع: مَعرفة الضَّارِّ المُؤْذِي المُنَافِر الَّذي يُنكِّد عليه حياته.

الخَامس: معرفة الطَّرِيق الَّتي إِذَا سَلَكَها أَفْضَت به إلى ذلك.

السَّادس: تَجَنُّب سُلوكها.

فَهَذه سِتَّة أُمورٍ لا تَتِمُّ لَذَّةُ العبد وفَرَحُه وَسُروره وصَلَاح حاله إِلَّا بِاسْتِكْمَالِها، ومَا نَقَصَ منها عاد عليه بِسُوء حَالِه وتَنْكِيد حياته.

وَكُلُّ عاقلٍ يسعى فِي هذه الأمور، لكنَّ أَكْثَرَ النَّاس غَلِطَ في تحصيل هذا المطلوب النَّافع:

- إِمَّا في عدم تَصَوُّرِه ومعرفتهِ.

- وَإِمَّا في عدم معرفة الطَّرِيق المُوصِلَة إليه.

فَهَذَان غَلَطَان سببهما الجهل، ويُتَخَلَّصُ مِنهما بالعلم.

وَقَدْ يَتَحَصَّل له العلم بالمطلوب والعلم بطريقه، لكنَّ في قلبه إِراداتٌ وشَهَواتٌ تَحُول بينه وبين قَصْد هذا المَطلوب النَّافع وسُلُوك طريقه، فكُلَّما أراد ذلك اعترضته تلك الشَّهوات والإرادات، وحالت بينه وبينه.

وهو لا يُمكنه تَرْكها وتقديم هذا المطلوب النَّافع عليها إلَّا بأحد أمرين:

- إِمَّا حُبٌّ مُقلقٌ.

- وإِمَّا فَرَقٌ مُزْعِجٌ.

فيكون الله ورسولُه والدَّارُ الآخرة وَالجَنَّةُ ونعيمُها أَحَبَّ إليه من هذه الشَّهوات، ويعلم أَنَّه لا يمكنه الجَمْع بينهما، فَيُؤْثِر أعلى المحبوبَيْن عَلَى أَدْنَاهما.

وَإِمَّا أَنْ يحصل له عِلْمُ ما يترَتَّب على إيثار هذه الشَّهوات من المَخاوف والآلام الَّتي أَلَمُها أَشَدُّ من أَلَمِ فَوَات هَذه الشَّهَوات وَأَبْقَى.

فَإِذَا تَمَكَّن من قلبه هذان العِلْمَان أَنْتَجَا له إيثار ما ينبغي إيثارُه، وتقديمُه على ما سواه؛ فَإِنَّ خاصِّيَّة العقل: إيثارُ أعلى المَحبُوبَيْن على أدناهما، واحتمالُ أدنى المَكْرُوهَيْن لِيتَخَلَّص به من أعلاهما.

وبِهذا الأصل تعرفُ عقول النَّاس، وَتُمَيِّز بين العاقل وغيرِه، وَيَظْهر تَفَاوُت النَّاس في العقول.

فَأَيْن عقلُ مَنْ آثَر لَذَّةً عاجلةً مُنْغِصَةً مُنْكِدَةً - إِنَّما هي كأضغاث أحلامٍ، أو كَطَيْفٍ تمتَّع به مِنْ زَائِره في المنام - على لَذَّةٍ هي مِنْ أعظم اللَّذَّات، وفرحةٍ ومَسَرَّةٍ هي مِنْ أَعظم المَسَرَّات، دائمةٍ لا تزول، ولا تَفْنَى ولَا تَنْقَطع، فَبَاعَها بِهذه اللَّذَّةِ الفَانية المُضْمَحِلَّةِ الَّتِي حُشِيَت بِالآلام، وَإِنَّما حَصَلَت بالآلام، وعاقبتها الآلام؟

فَلَو قَايَس العاقل بين لَذَّتِها وأَلَمِها، ومَضَرَّتِها ومَنْفعتها؛ لَاسْتَحْيَا مِن نَفْسِه وعَقْلِهِ؛ كيف يسعى في طَلَبها! ويُضِيع زَمَانَه في اشتغالِهِ بِهَا! فَضْلًا عن إيثارها على مَا لَا عَيْنٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولَا خَطَرَ على قلب بَشَرٍ!

وَقَد اشْتَرَى الله - سبحانه - من المؤمنين أَنْفُسَهم، وجعَلَ ثَمَنها جَنَّته، وَأَجْرَى هذا العَقْد على يد رَسُوله وَخَلِيله وخِيرَتِه مِنْ خَلْقه.

فَسِلْعَةٌ رَبُّ السَّمَواتِ والأرضِ مُشْتَرِيها، والتَّمَتُّعُ بِالنَّظَرِ إلى وجهه الكريم وسَمَاعُ كَلامه منه في داره ثمنُها، ومَنْ جَرَى على يَدِه العَقدُ رَسُولُه = كَيْف يَلِيق بِالعَاقل أَنْ يُضَيِّعها ويُهْملها ويَبِيعها بِثَمَنٍ بَخْسٍ، في دارٍ زائلةٍ مُضْمَحِلَّةٍ فَانِيةٍ!

وهل هذا إِلَّا مِنْ أَعْظَم الغَبْن!

وَإِنَّما يَظهر هذا الغَبْن الفاحش يوم التَّغَابُن؛ إذا ثَقُلَت موازين المُتَّقِين وَخَفَّت مَوازين المُبْطِلين.



قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

ذَكَر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في هذا الفصل **سِتَّة أمورٍ**، لا تَتِمُّ لَذَّة العبد وفَرَحه وسروره إلَّا باستكمالها، وما نَقَص منها عَادَ عليه بِسُوء الحال ونكَد العيش.

أحدها: (**أحدها**: معرفة الشَّيء النَّافِع لِلْعَبد، المُلائم له؛ الَّذي بحصوله له لَذَّته وَفَرَحُه وَسُرُوره وَطِيبُ عَيْشِه).

و(**الثَّاني**: مَعرفة الطَّرِيق المُوصِلَة إلى ذلك).

و(**الثَّالث**: سُلوك تِلْك الطَّرِيق).

و(**الرَّابِع**: مَعرفة الضَّارِّ المُؤْذِي المُنَافِر الَّذي يُنكِّد عليه حياته).

و(**الخَامس**: معرفة الطَّرِيق الَّتي إِذَا سَلَكَها أَفْضَت به إلى ذلك).

و(**السَّادس**: تَجَنُّب سُلوكها).

ثُمَّ ذَكَر أَنَّ (كُلَّ عاقلٍ يسعى فِي هذه الأمور، لكنَّ أَكْثَرَ النَّاس غَلِط فِي تحصيل هذا المطلوب) المحبوب (النَّافع) **من أحد شيئين**:

- **أحدهما**: (عدم تَصَوُّرِه) بالكُلِّيَّة.
- **وثانيهما**: تَصَوُّره مع (عدم معرفة الطَّرِيق المُوصِلَة إليه).

فهذان الغَلَطان هما منشأ غَلَط الغالِطين في هذا الأمر؛ الَّذي آل بِهم إلى فَقْد اللَّذَّات.

وإِنَّما وُجِدَ هذان السَّببان: من الجهل بالله، وبأمره، وبما جاء به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والتَّخَلُّص منهما سبيله: العِلمُ.

لَكنَّ العبد إذا طَلَب العِلم ربَّما عَرَضت لقلبه شَهوات وشُبهاتٌ تحول بينه وبين قَصْد هذا المطلوب، وتمنَعُه من سلوك طريقِه، وتُزَيِّن له سلوك غيره.

ولا يمكن للعبد دَفْع هذه الشَّهوات والشُّبهات عن نفسه إلَّا بأحد أَمرين:

- **أحدهما:** (حُبٌّ مُقلِقٌ) لِمَا أَعَدَّه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من الكَرامة لِمَنْ أقبل عليه وعَامله بطاعته.
- **وثانيهما:** (فَرَقٌ مُزْعِجٌ) وخوفٌ من عقوبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالصَّيرورة إلى دَار النَّدامة.

(فيكون الله ورسولُه والدَّارُ الآخرة وَالجَنَّةُ ونعيمُها أَحَبَّ إليه من هذه الشَّهوات، ويعلم أَنَّه لا يمكنه الجَمْع بينهما، فَيُؤْثِر أعلى المحبوبَيْن عَلَى أَدْنَاهما.

وَإِمَّا أَنْ يحصل له عِلْمُ ما يتَرَتَّب على إيثار هذه الشَّهوات من المَخاوف والآلام الَّتي أَلَمُها أَشَدُّ من أَلَمِ فَوَات هَذه الشَّهَوات وَأَبْقَى).

فِمِمَّا يُساق به القلب إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ:

- إِمَّا بحادي الحُب المُقلِق؛ الَّذي يحمل العبد على تَرْك الشَّهوات والشُّبهات.

- أو حادي الفَرَق المُزعج؛ الَّذي يُرْهِب العبد ويُخَوِّفه؛ فيمنعه من سلوك طريقة مَنْ سَلَك هذيْن المَشربَيْن - أعني طريق الشَّهوات والشُّبهات.

وإذا عُرِف هذا؛ عَرَفْتَ تَبَايُن عقول النَّاس؛ فإِنَّ مِن النَّاس مَنْ يَبِيع الغالي النَّفيس بالفَانِي الخَسيس، ويرضى بشهوة ساعةٍ عن شهوةٍ كاملةٍ تَامَّةٍ لا نَقْصَ فيها، ولا يرضى أن يُقاسي أَلَمًا يسيرًا ليُبَدِّله الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لَذَّةً عُظْمى، بل هَمُّه ورَغبتُه في اللَّذَّات

العاجلة، وخوفُه ورهبتُه ليست من الآلام الآجِلة، وإِنَّما من فَوْتِ شيءٍ من حُظوظ هذه الدُّنيا.

فهذا هو المَغبون حَقًّا.

والعاقل السَّعيد: مَنْ يَسَّر الله عَزَّوَجَلَّ له حَادِيًا مِن حُبٍّ مُزعِجٍ أو خوفٍ مُقلِق، فَسَاقَه إلى تعظيم هذه السِّلعة، الَّتي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مُشتَرِيها، وثمنُها: كلامه، والصَّيرورَة إلى دار كرامتِه، وعَقْدُ البيع قد جَرَى على يد رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصلٌ

إِذَا عَرَفْتَ هذه المُقَدِّمةَ؛ فَاللَّـذَّةُ التَّامَّةُ، والفَرَح والسُّرُور، وَطِيب العَيْش، والنَّعِيم؛ إِنَّمَا هو في معرفة الله، وتوحيده، والأُنْس به، والشَّوْق إِلَى لِقَائِه، وَاجْتِمَاع القَلْب وَالهِمَّة عليه.

فَإِنَّ أَنْكَد العَيْش عَيْشُ مَنْ قَلْبُه مُشَتَّتٌ، وَهَمُّه مُفَرَّقٌ؛ فَلَيْس لِقَلْبِه مُسْتَقَرٌّ يسْتَقِرُّ عنده، وَلَا حَبِيبٌ يَأْوِي إِلَيْه ويَسْكُن إِلَيْه.

كَمَا أَفْصح القائل عن ذلك بقوله:

وَمَا ذَاقَ طَعْمَ الْعَيْشِ مَنْ لَم يكن له
حَبِيبٌ إِلَيْهِ يَطْمَئِنُّ وَيَسْكُنُ

فَالعَيْشُ الطَّيِّبُ، وَالحَياة النَّافِعة، وَقُرَّةُ العَيْن في السُّكُونِ وَالطُّمَأْنِينَة إِلَى الحَبِيبِ الأَوَّل، وَلَو تَنَقَّلَ القَلْبُ فِي المَحبوبات كُلِّها لَمْ يَسْكن وَلَم يَطْمَئِنَّ إِلَى شَيْءٍ مِنها، وَلَمْ تَقَرَّ به عَيْنه حَتَّى يَطْمَئِنَّ إِلَى إِلَهِهِ وَرَبِّهِ وَوَلِيِّه؛ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِه وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَلَا غِنَى لَهُ عَنْه طَرْفَةَ عَيْنٍ، كما قال القائل شِعْرًا:

نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى
مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ

كَـمْ مَنْـزِلٍ فِـي الْأَرْضِ يَأْلَفُـهُ الْفَتَـى
وَحَنِينُـــــهُ أَبَـــــدًا لِأَوَّلِ مَنْـــــزِلِ

فَاحْرِصْ على أَنْ يَكُوْنَ هَمُّك واحدًا؛ وَأَنْ يكون هو الله وحده؛ فَهَذَا غايةُ سَعَادَةِ العَبْد، وصَاحب هذه الحَالِ في جَنَّةٍ مُعَجَّلَةٍ قبل جَنَّة الآخرة وفِي نَعِيمٍ عَاجِلٍ؛ كَمَا قال بعض الوَاجِدِين: «إِنَّه لَيَمُرُّ بِالقَلْبِ أَوْقَاتٌ أقول: إِنْ كَانَ أَهْلِ الجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا إِنَّهَم لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ».

وقال آخر: «إِنَّه لَيَمُرُّ بِالقَلْبِ أَوْقَاتٌ يرقص فيها طَرَبًا».

وقال آخر: «مَسَاكِينُ أَهْلُ الدُّنْيَا! خَرجوا منها، وما ذَاقوا أَطْيَبَ ما فيها»، قيل له: وَمَا أَطْيَب مَا فيها؟ قال: «مَعْرِفة الله، ومَحَبَّته، والأُنْس بِقُرْبِهِ، والشَّوق إِلَى لِقَائِه».

وَلَيْس فِي الدُّنْيَا نَعِيمٌ يُشْبِه نَعِيم أهلِ الجَنَّةِ إِلَّا هذا.

ولهذا قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُم النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»:

فَأَخْبَرَ أَنَّهُ حُبِّبَ إليه من الدُّنيا شيئان: النِّساء، والطِّيب، ثمَّ قال: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**».

وقُرَّة العين فَوْقَ المَحَبَّة؛ فَإِنَّه ليس كلُّ مَحْبوبٍ تَقَرُّ به العين، وَإِنَّمَا تَقَرُّ العَيْن بِأَعْلَى المَحبوبات، الَّذي يُحَبُّ لِذَاتِه، وليس ذلك إِلَّا الله الَّذي لَا إِلَه إِلَّا هُو، وَكُلُّ مَا سِوَاه فَإِنَّمَا يُحَبُّ تبَعًا لِمَحَبَّته، فيُحَبُّ لِأَجْلِه وَلَا يُحَبُّ معه؛ فَإِنَّ الحُبَّ معه شِرْكٌ، وَالحُبُّ لِأَجْلِه توحيدٌ.

فَالمُشْرِكُ يَتَّخِذُ مِن دون الله أندادًا يُحِبُّهم كَحُبِّ الله، وَالمُوَحِّد إِنَّمَا يُحِبُّ مَنْ يحبُّه الله، ويُبْغِضُ مَنْ يبغضه الله، ويفعل ما يفعله لله، ويترك ما يتركه لله.

وَمَدَار الدِّين على هذه القواعد الأربع؛ وهي: الحُبُّ، وَالبُغْض، وَيَتَرَتَّب عليهما: الفِعْل والتَّرْك، وَالعَطَاء وَالمَنْع.

فَمَن اسْتَكْمَلَ أَنْ يكون هذا كُلُّه لله اسْتَكْمَلَ الإيمانَ، ومَا نَقَصَ منها أن يكون لله عَادَ بِنَقْصِ إيمان العبد.

وَالمَقْصودُ: أَنَّ مَا تَقَرُّ به العَيْن أعلى مِنْ مُجَرَّد مَا يُحِبُّه؛ فَالصَّلاة قُرَّةُ عُيون المُحِبِّين فِي هَذِه الدُّنْيا؛ لِمَا فِيها مِن مُنَاجَاةِ مَنْ لَا تَقَرُّ العيون إِلَّا بِه، وَلَا تَطمئِنُّ القُلُوب وَلَا تَسْكُن النُّفُوس إِلَّا إِلَيْه، وَالتَّنَعُّمِ بِذِكْرِه، وَالتَّذَلُّلِ والخضوع لـه، والقُرْبِ مِنه، ولا سيَّما فِي حال السُّجود؛ وتِلْك الحال أَقْرب ما يكون العبد من رَبِّه فيها.

ومن هذا: قول النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا بِلَالُ؛ أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ**»؛ فَأَعْلَمَ بِذَلك أَنَّ رَاحتَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاة، كَمَا أَخْبَرَ أَنَّ قُرَّةَ عَيْنِه فيها.

فَأَيْنَ هَذَا مِن قَول مَنْ يقول: نُصَلِّي وَنَسْتَرِيح مِن الصَّلاة!

فَالمُحِبُّ راحتُه وَقُرَّةُ عَيْنِهِ فِي الصَّلاة، وَالغَافِلُ المُعْرِضُ لَيْسَ لَه نَصِيبٌ من ذلك، بل الصَّلَاةُ كَبيرةٌ شَاقَّةٌ عليه، إِذَا قام فيها كَأَنَّه قائمٌ على الجَمْر حَتَّى يَتَخَلَّصَ مِنْها، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَيْهِ أَعْجَلُهَا وَأَسْرَعُها، فَإِنَّه لَيس لَه قُرَّةُ عَيْنٍ فيها، وَلَا لِقَلْبِه رَاحةٌ بِها.

والعبد إذا قَرَّت عَينُه بِشَيْءٍ وَاسْتَرَاح قلبه به فَأَشَقُّ مَا عَلَيْه مُفَارقتُه.

وَالمُتَكَلِّفُ الفَارِغُ القَلْبِ من الله والدَّار الآخرة المُبْتَلى بِمَحَبَّة الدُّنْيا أَشَقُّ ما عليه:

الصَّلاةُ، وَأَكْرَه ما إليه: طُولُها، مَعَ تَفرُّغه وصَحَّتِهِ وَعَدم إشغاله!

قَالَ الشَّارِحُ وفّقَه اللهُ:

بعد أن بَيَّن ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى فيما سَلف من الفصول ما يتعلَّق بتحصيل اللَّذَّات؛ ذَكَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هنا أَنَّ (اللَّذَّةَ التَّامَّةَ، والفَرَح والسُّرُور، وَطِيب العَيْش، والنَّعِيم؛ إِنَّمَا هو في معرفة الله، وتوحيده، والأُنْس به، والشَّوْق إِلَى لِقَائِه، وَاجْتِمَاع القَلْب وَالهِمَّة عليه)؛ فالسَّعيد مَنْ كان ذلك حَشْوُ قلبِه، والشَّقِيُّ مَنْ كان قلبه مُشَتَّتًا وهَمُّه مُفَرَّقًا؛ فَإِنَّه لا عَيْشَ أَنْكَد من عَيْشه.

ثُمَّ حَثَّ على أَنْ يكون هَمُّ العبد هَمًّا واحدًا وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فَإِنَّ القلب إذا مُلِئ بِمَحَبَّة الله، وخوفه، وخشيته، والأُنْس به، والشَّوْق إليه؛ كان صاحبه في جَنَّةٍ عظيمةٍ من جِنَان الدُّنيا، فهي جَنَّته المُعَجَّلة قبل جَنَّة الآخرة.

كما قال شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى فيما نَقَله عنه تلميذه ابن القَيِّم في «مدارج السَّالكين»: (إِنَّ في الدُّنيا جَنَّةً مَنْ لم يدخلها لم يدخل جَنَّة الآخرة)[1].

وإِنَّما أراد شيخ الإسلامِ بِهذه الجَنَّة: جَنَّةَ الأُنْس بالله، والشَّوْق إليه، والانطراح بين يديه، والتَّلَذُّذ بكلامه، ودعاءِه في محراب مُناجاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما تَكَلَّم بهذا مَنْ تَكَلَّم من أهل الصَّلاح والتُّقى مِمَّنْ وَجَد هذا المعنى؛ فقال أحدهم: («إِنَّه لَيَمُرُّ بِالقَلْبِ

---

(١) «مدارج السَّالكين في منازل السَّائرين» (٢/ ٨٨)، وذكره في «الوابل الصَّيِّب» أيضًا (ص١٠٩).

أَوْقَاتٌ أقُول: إِنْ كَانَ أَهْل الجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا إِنَّهَم لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ»)، (وقال آخر: «إِنَّه لَيَمُرُّ بِالقَلْبِ أَوْقَاتٌ يرقص فيها طَرَبًا»)، وقال ثالثٌ: («مَسَاكِينُ أَهْلُ الدُّنْيَا! خَرجوا منها، وما ذَاقوا أَطْيَبَ ما فيها»، قيل له: وَمَا أَطْيَب مَا فيها؟ قال: «مَعْرفة الله، ومَحَبَّتُه، والأُنْس بِقُرْبِهِ، والشَّوق إِلَى لِقَائِه»).

(وَلَيس فِي الدُّنْيَا نَعِيمٌ يُشْبِه نَعِيم أهلِ الجَنَّةِ إِلَّا هذا) النَّعيم، مِن تَلَذُّذ القلب بمعرفة الله، ومَحَبَّته، وأُنْسِه بِقُربه، والشَّوق إلى لقائه.

(ولهذا قال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُم النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»)؛ فأخبر النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ مَحبوباته من الدُّنيا ترجع إلى النِّساء والطِّيب.

وإِنَّما خُصَّ هذان العَرَضَان من أعراض الدُّنيا - كما ذَكَر أبو الفَرَج ابن رجبٍ في بعض رسائله - بالمَحَبَّة؛ لِأَنَّ بِهما صلاح الرُّوح؛ فَإِنَّ النَّفس والرُّوح تنتفعان بأَمْر النِّساء والطِّيب أكثر من انتفاعهما بسائر الأعراض؛ فَإِنَّ بقيَّة أعراضِ الدُّنيا إِنَّما يكون بِها صلاحٌ للبدن، أَمَّا النِّساء والطِّيب ففيها صلاحٌ للرُّوح والنَّفس.

ثُمَّ قال النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: («**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»)، وقُرَّة العين أَمْرٌ فوق المحبَّة.

والصَّلاة هي أعظم الأحوال القَلْبِيَّة الَّتي يكون فيها الأُنس بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والشَّوْقُ إليه؛ ففيها تحقيقُ توحيد الله عَزَّوَجَلَّ في مقاماتٍ عظيمةٍ، من الوقوف بين يديه قيامًا ساكنًا من غير حَركةٍ، ووَضْع اليد على الأُخرى، كما قال الإمام أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (وَضع

اليد على الأخرى في الصَّلاة ذُلٌّ بين يدي عزيزٍ).

فمَنِ اطَّلع إلى حال العبد في صلاته، فإذا كَمُل هذه الحال الَّتي هو فيها يكون قد وَقف على بابٍ من أبواب معرفة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وأُنْسه والشَّوْق إليه لا يحصل لغيره.

وهذا هو الَّذي أدركه النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ فوَجَد قُرَّة عينه في الصَّلاة في سكون نفسه إليها، وتَنَعُّمه بذِكْر رَبِّه، وتَلَذُّذه بالخضوع له.

فكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يقول: («**يَا بِلَالُ؛ أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ**»)؛ فكانت راحة النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في الصَّلاة.

وتصديق هذا من كلام الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة:٤٥]؛ فأهل الخشوع الكامل لا يجِدون راحتهم إلَّا في الصَّلاة؛ فَهُم يَتَلَذَّذون بطُولِها ويَسْعَون إليها، ويُسابقون إلى الحضور فيها مُبَكِّرًا؛ لأَنَّهم يعلمون أَنَّ رَاحة قلوبِهم وطمأنينتها وأُنسَ نفوسهم إِنَّما يكون بِهذا الأمر من أمور الدُّنيا.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَمِمَّا ينبغي أَنْ يُعْلَمَ: أَنَّ الصَّلاة الَّتي تَقَرُّ بِهَا العَيْن وَيَسْتريح بِها القَلبُ هي الَّتي تَجْمع سِتَّة مشاهدَ:

المشهد الأوَّل: الإخلاص

وهو أَنْ يكون الحامل عليها والدَّاعِي إليها رَغْبةُ العبد في الله، ومحبَّته له، وَطَلَب مَرضاته، والقُرب منه، وَالتَّوَدُّد إليه، وامتثال أَمْرِه؛ بحيث لا يكون الباعث له عليها حَظًّا من حُظوظ الدُّنْيا ألبَتَّة، بل يأتي بِها ابتغاء وجه رَبِّه الأَعْلى، مَحَبَّةً له، وخَوْفًا مِن عَذَابه وَرَجَاءً لِمَغفرته وثَوَابِه.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللَّهُ:

لَمَّا حَثَّ ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى الرَّكْب بالسَّير إلى تحصيل ما به طُمأنينة النَّفْس وقُرَّة العيش وراحة القلب - وهو الصَّلاة -؛ ذَكَر أَنَّ الصَّلاة الَّتي تَتحقَّق بِها هذه الأوصاف وتَقَرُّ عين صاحبها ويستريح قلبه: هي الصَّلاة (الَّتي تَجْمع سِتَّة مشاهدَ).

فإذا اجتمعت هذه المشاهد السِّتَّة فيها نَال العبدُ من حلاوة الصَّلاة ما آنسه النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منها، فكانت راحتَه.

فبدأ بِأَوَّل المشاهد؛ وهو (الإخلاص) لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيها، فيكون الحامل للعبد

على أدائها: رغبته في الله، (ومحبَّته له، وَطَلَب مَرضاته).

وسَبَق أَنْ ذَكَرْنا أنَّ **حقيقة الإخلاصِ** هي تصفية القلب من إرادة غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإلى هذا أشرتُ بقولي:

إِخْلَاصُنَا للهِ صَفُّ القَلْبَ مِنْ   إرادةٍ سواه فَاحْذَرْ يَا فَطِنْ

فإذا خَلُص قلب العبد وصَفا من كُلِّ الإرادات الَّتي تكون فيه إِلَّا إرادةَ وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كان مُخلِصًا في عمله؛ وهذا هو الَّذي ينبغي أن يشهده العبد في صلاته؛ فيكون قلبه ليس فيه إِلَّا إرادةُ الله عَزَّوَجَلَّ رغبةً ومحبَّةً.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

المشهد الثَّاني: مشهد الصِّدْق والنُّصْح

وهو أَنْ يُفَرِّغ قلبه لله فيها، ويستفرغ جُهْده فيها فِي إِقْبَاله على الله، وَجَمْعِ قَلْبِه عليها، وَإِيقَاعِها على أَحْسَنِ الوُجُوه وَأَكْمَلها ظاهرًا وباطنًا.

فَإِنَّ الصَّلَاة لَها ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ:

فظاهرُها: الأفعال المُشَاهَدة والأقوال المَسموعة.

وباطنُها: الخُشوع، والمُراقبة، وتَفْريغ القَلب لله، والإقبال بِكُلِّيَّتِهِ على الله فيها؛ بِحَيْث لا يلتفت قلبه عنه إلى غيره.

فَهَذا بِمنزلة الرُّوح لها، والأفعال بمنزلة البَدن، فَإِذَا خَلَت من الرُّوح كانت كَبَدنٍ لَا رُوح فيه.

أَفَلا يَسْتَحي العبد أَنْ يُوَاجِه سَيِّدَه بِمِثْل ذلك!

وَلِهَذا تُلَفُّ كَمَا يُلَفُّ الثَّوْب الخَلِق، وَيُضْرَبُ بِها على وجه صاحبها، وتقول: ضَيَّعَك الله كَمَا ضَيَّعْتَنِي.

والصَّلاة الَّتي كَمُل ظاهرُها وباطنُها تَصْعد وَلَها نُورٌ وَبُرْهان كَنُورِ الشَّمْس؛ حَتَّى تُعْرَض على الله فَيَرْضاهَا وَيَقْبَلها، وتقول: حَفِظَك الله كَمَا حَفِظْتَني.



قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

ذَكَر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هنا (**المشهد الثَّاني**) من مشاهد الصَّلاة السِّتَّة؛ وهو (مشهد الصِّدْق والنُّصْح) فيها؛ بأن (يُفَرِّغ) العبد (قلبه لله)، (ويستفرغ جَهْده فيها فِي إِقْبَاله على الله)؛ فيكون مُقبِلًا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في باطنه.

وهذا المَقام - الَّذي هو مَقام الصِّدْق - يُقال له بِأَنَّه (توحيد الإرادة).

كما أَنَّ المَقام الأَوَّل - وهو الإخلاص - يُقال له (توحيد المُراد).

فالمُخلِص يجعل مُراده واحدًا؛ وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثُمَّ يَصْدُق فيجعل إرادته واحدةً؛ فلا يكون في قلب هذا المُريد إرادةٌ تُفسِد الإرادة العُظمى - وهي التَّوَجُّه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -؛ فحَصَل بِهذا الفَرْق بين الإخلاص والصِّدق؛ كما ذَكَره شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيِّم، وابن رجبٍ: بأَنَّ الإخلاص هو توحيد المُراد، والصِّدق هو توحيد الإرادة.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصلٌ

المشهد الثَّالث: مشهد المُتابعة والاقتداء

وهو أَنْ يحرص كُلَّ الحِرْص على الاقتداء فِي صلاته بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُصَلِّي كما كان يُصَلِّي، وَيُعْرِض عَمَّا أَحْدَث النَّاس فِي الصَّلاة، مِن الزِّيَادة والنُّقْصَان، وَالأَوضاع الَّتِي لَمْ يُنْقَل عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْءٌ منها وَلَا عَن أَحَدٍ من الصَّحابة.

وَلَا يَقِف عند أقوال المُرَخِّصين الَّذين يَقِفون مع أَقَلِّ ما يعتقدون وجوبه، ويكون غيرهم قد نَازَعهم فِي ذلك وَأَوْجَب مَا أَسْقطوه.

وَلَعَلَّ الأحاديث الثَّابِتَة والسُّنَّة النَّبَوِيَّة من جَانبه وَلَا يَلتفتون إلى ذلك، ويقولون: (نحن مُقَلِّدُون لِمَذْهب فلانٍ وفلانٍ)، وَهَذا لَا يُخَلِّصُ عِند الله، ولا يكون عُذْرًا لِمَنْ تَخَلَّف عَمَّا عَلِمَه من السُّنَّة عنده.

فَإِنَّ الله - سبحانه - إِنَّما أَمَرَ بطاعة رسوله وَاتِّبَاعه وَحده وَلَم يَأْمُر بِاتِّبَاع غيره، وَإِنَّما يُطَاع غَيْرُه إِذَا أَمَرَ بِمَا أَمَرَ بِه الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكُلُّ أَحَدٍ سِوَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَأْخُوْذٌ من قوله وَمَتْروكٌ.

وَقَدْ أَقْسَم الله - سبحانه - بنفسه الكريمة أَنَّا لا نؤمن حَتَّى نُحَكِّم الرَّسول فِيما شَجَر بَيْننا، وَنَنْقَاد لِحُكْمه وَنُسَلِّم تَسلِيمًا.

فَلَا يَنفعنا تحكيم غيرِه والانقياد له، وَلَا يُنْجِينا مِن عَذَاب الله، ولا يُقْبَل مِنَّا هَذا الجَواب إِذَا سَمِعنا نِداءَه - سبحانه - يقول يوم القيامة: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]، فَإِنَّهُ لَا بد أَنْ يسألنا عن ذلك، وَيُطَالِبنا بِالجَواب.

قال تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦﴾ [الأعراف].

وقال النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ بِي تُفْتَنُونَ، وَعَنِّي تُسْأَلُونَ**»؛ يعني المَسْأَلة في القبر.

فَمَن انْتَهت إِليه سُنَّة رَسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَرَكَها لِقَوْل أَحَدٍ من النَّاس فَسَيُرَدُّ يَوْم القِيامة وَيَعلم.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذَكَر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى (**المشهد الثَّالث**) من مشاهد الصَّلاة الَّتي هي قُرَّة العين؛ وهو (مشهد المُتابعة والاقتداء).

ويحوي سِمْطَهُ قولُ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أخرجه البخاريُّ من حديث مالكِ بن الحويرث: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**».

فَأَمَر النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ تكون صَلاةُ أحدنا وِفق الصَّلاة النَّبويَّة في صِفتها؛ لِأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أرسله إلينا رسولًا مُبَلِّغًا وهادِيًا وبشيرًا ونذيرًا، فأَمرنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ نُصلِّي الصَّلاة وَفْق ما كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي.

وهو - صلوات الله وسلامه عليه - أعلم النَّاس بأكمل الصَّلاة الَّتي تصلح لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فأكمل النَّاس صلاةً: مَنْ كان مُقتديًا بالنَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في صلاته؛ لِأَنَّ الصَّلاة مَظهرٌ من مظاهر تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ.

ومَنْ أراد أن يُعَظِّم الله فَلْيُعَظِّمه بتعظيمِ عارفٍ به، ولا أحد أعلم بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وقد جاء في الأمر بطاعته صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ آياتٌ وأحاديثُ كثيرةٌ؛ فيها البيان الأكيد والوعيد الشَّديد على مَنْ خالَف طريقة النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في صغيرٍ أو كبيرٍ أو دقيقٍ أو جليلٍ.

وإنَّما بَعثه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لِيبتلي به، كما جاء في «صحيح مسلم» أَنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال فيما يرويه عن رَبِّه في حديث عِياضٍ المُجاشعيِّ: «**إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ**».

وهذا معنى ما صَحَّ من حديث عائشةَ أَنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ بِي تُفْتَنُون، وعَنِّي تُسْأَلُونَ**»؛ فمِن الابتلاء به صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: الابتلاء به في الأوضاع المنقولة في كلام الفقهاء من صفة الصَّلاة.

فمَنْ عَظَّم كلام الفقهاء وأَخَذه ولم يُبالِ بما صَحَّ من الأحاديث عن النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فأين هو مِن قول النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»؟!

ومِن هنا عظَّم السَّلفُ رَحِمَهُمُٱللَّهُ تعالى صلاة النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وتتَبَّعوا أفرادها،

حَتَّى قال ابن حِبَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «في أربعِ ركعاتٍ يركعها الرَّجُل أكثر من أربعمائة سُنَّةٍ عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»؛ يعني أكثر من أربعمائة حديثٍ مَرْوِيٍّ عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا.

وقد أَفْرَدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى كتابًا اسمه «صِفَة الصَّلَاة»، وهو أقدَم مَنْ ذُكِر أَنَّه أفردَ كتابًا بِهذا المعنى بعد أبي نُعيْمٍ - شيخ البخاريِّ -، إِلَّا أَنَّ كتاب أبي نُعيْمٍ قد فَنِي منذ أزمانٍ، وكأنَّه لم يستقصِ فيه.

أَمَّا كتاب أبي حاتمٍ بن حِبَّان فإِنَّه استقصى فيه؛ فكان يُحِيل عليه في كتابه «الصَّحيح»؛ لِأَنَّه استوفى الأحاديث الواردة في صِفة صلاة النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا أراد الإنسان أنْ يُعَظِّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الصَّلاة فَلْيأخذ بتعظيم النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَإِنَّه شافٍ كافٍ.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فصلٌ

المشهد الرَّابع: مشهد الإحسان

وهو مشهد المراقبة؛ وهو أَنْ تعبد الله كَأَنَّك تَراه.

وهَذَا المَشْهد إِنَّمَا يَنْشأ من كمال الإيمان بِالله وأسمائِهِ وصِفاته، حَتَّى كَأَنَّه يَرَى الله - سبحانه - فوق سَمَاواتِهِ، مُسْتَوِيًا على عرشه، يَتكَلَّم بِأَمْرِه وَنَهْيه، وَيُدَبِّر أَمْر الخَلِيقَةِ، فَينزل الأمر من عنده ويَصْعد إليه، وَتُعْرَض أعمال العِباد وَأَرْواحهم عِند المُوَافاة عليه، فَيَشهد ذلك كُلَّه بقلبه، ويشهد أسماءه وَصِفاته، ويشهد قَيُّومًا، حَيًّا، سَميعًا، بَصِيرًا، عزيزًا، حكيمًا، آمِرًا نَاهِيًا، يُحِبُّ ويُبْغِض، ويَرْضى ويغضب، ويفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فوق عَرْشِه، لا يخفى عليه شَيْءٌ من أعمال العباد ولا أقوالهم ولا بواطنهم، بل ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر].

ومشهد الإحسان أَصْل أعمال القلوبِ كُلِّها؛ فَإِنَّه يُوجِب الحياءَ، والإجْلال، والتَّعْظيم، والخَشْيَة، وَالمَحَبَّة، وَالإنابة، والتَّوَكُّل، وَالخُضوع لله - سبحانه -، وَالذُّلَّ لَه، وَيَقْطع الوَساوس وحَديث النَّفْس، وَيَجْمَع القَلْب وَالهَمَّ على الله.

فَحَظُّ العبد من القُرْب من الله على قَدْر حَظِّه مِن مَقام الإحسان، وَبِحَسَبه تَتَفَاوت الصَّلَاة، حَتَّى يَكُونَ بَيْن صَلاة الرَّجُلَيْن مِن الفَضْل كَمَا بَيْن السَّماء والأرض، وقيامُهما وركوعهما وسجودهما واحدٌ.

قَالَ الشَّارِحُ وفّقه الله:

ذَكَر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هنا (**المشهد الرَّابع**) من مشاهد الصَّلاة الَّتي تَقَرُّ بِها العين؛ وهو (مشهد الإحسان).

وقد تَقَدَّم بيانه من كلام أبي الفَرَج ابن رجبٍ في شَرْح حديث شَدَّادٍ، وأَنَّ **حقيقة الإحسانِ** هو إتقان العبادة وتكميلها، على ما ذَكَره النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث جبريل: «**اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

فَذَكَر النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقاميْن اثنيْن، أحدهما أكمل من الآخر:

- **أَوَّلهما**: مقام المُشاهَدة.
- **وثانيهما**: مَقام المُراقبة.

فالأوَّل: بِأَنْ يعبد العبد رَبَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على شُهود أسمائه وصفاته؛ فيشهده (قَيُّومًا، حَيًّا، سَميعًا، بَصِيرًا، عزيزًا، حكيمًا)، حَيِيًّا كريمًا، (آمِرًا نَاهِيًا، يُحِبُّ ويُبغِض، ويَرْضى ويغضب، ويفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فوق عَرْشِه).

فإنْ لم يمكنه هذه المنزلة فَلْيعبد الله عَزَّوَجَلَّ على مقام المراقبة؛ فيستحضِر أَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُطَّلِعٌ عليه، شهيدٌ على ما تقترفُ يداه.

ومشهد الإحسان أصلُ أعمال القلوب كُلِّها؛ لِمَا يُورِثه مِن إجلال الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمِه وخشيتِه؛ ولهذا صار **أهل الإحسان هُم أكملُ أهل الإيمان، كما أَنَّ أهل الإيمان أَكْمل أهل الإسلام.**

فأعلى أهل الإسلامِ منزلةً هُم المُحسنون؛ ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[العنكبوت:٦٩]؛ يعني أَنَّ المَعِيَّة الكاملة من الله عَزَّوَجَلَّ بالنُّصرة والتَّأييد إِنَّما تكون مع كُمَّل عَبْدِه، وهُم أهل الإحسان التَّامِّ.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فصلٌ

المشهد الخامس: مشهد المنَّة

وهو أَنْ يَشهد أَنَّ المِنَّة لله - سبحانه -، كَوْنَه أَقَامَه في هذا المَقام، وَأَهَّلَه له، وَوَفَّقه لِقِيَام قلبه وَبَدنه في خِدمته.

فَلَوْلَا الله - سبحانه - ما كان شَيْءٌ من ذلك، كما كان الصَّحابة يَحْدُونَ بين يَدَي النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقولون:

وَاللهِ لَوْلَا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

قال الله - تعالى -: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾[الحجرات]، فالله - سبحانه - هو الَّذي جَعَل المسلم مُسْلِمًا، والمُصَلِّي مُصَلِّيًا، كما قال الخليل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[البقرة:١٢٨]، وقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ﴾[إبراهيم:٤٠].

فَالمِنَّةُ لله وحده في أَنْ جَعَل عَبْده قائمًا بِطاعته، وكان هذا من أعظم نِعَمِه عليه.

وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ﴾[النَّحل:٥٣]، وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾

[الحجرات:٧].

وهذا المشهد من أعظم المشاهد وأَنْفَعِها للعبد، وَكُلَّمَا كان العبد أعظم توحيدًا كان حَظُّه من هذا المشهد أَتَمُّ.

وفيه من الفوائد: أَنَّه يَحُول بين القلب وبين العُجْب بالعمل ورؤيته؛ فَإِنَّه إذا شَهِد أَنَّ الله - سبحانه - هو المَانُّ بِه، المُوَفِّقُ له، الهَادِي إليه، شَغَلَه شُهود ذلك عن رؤيته، والإعجاب به، وَأَنْ يَصُول به على النَّاس، فَيُرْفع من قلبه؛ فَلا يعجب به، ومِن لِسَانه؛ فَلَا يَمُنُّ به وَلَا يَتكثَّر به؛ وهذا شَأْن العمل المرفوع.

ومن فوائده: أَنْ يُضِيف الحَمد كُلَّه إِلَى وَلِيِّه وَمُسْتَحِقِّه؛ فَلَا يَشْهَد لِنَفْسه حَمْدًا، بل يشهده كُلُّه لله، كَما يَشْهد النِّعْمَة كُلَّهَا مِنْه، وَالفَضل كُلّه له، والخيرُ كُلّه في يديه.

وهذا مِن تَمام التَّوحيد؛ فَلَا يَسْتَقِرُّ قَدَمه في مقام التَّوْحيد إِلَّا بِعِلْم ذلك وشُهُوده.

فَإِذَا عَلِمَه وَرَسَخَ فِيه صَار لَهُ مَشْهدًا، وَإِذا صار لِقَلْبِه مَشْهَدًا أَثْمَرَ له من المَحَبَّةِ وَالأُنْس بالله، والشَّوْق إلى لِقائه، والتَّنَعُّم بِذِكْرِه وطاعته مَا لَا نِسْبَةَ بينه وبين أعلى نَعيم الدُّنْيا أَلبَتَّة.

وَمَا لِلمَرْء خَيْرٌ فِي حياته إِذَا كان قَلْبه عن هذا مَصْدُودًا، وطريق الوُصُول إِلَيه عنه مَسْدُودًا، بل هو كما قال تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٣﴾ [الحجر].



قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

ذَكَر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هنا (**المشهد الخامس**) من مشاهد الصَّلاة الَّتي هي قُرَّة العين؛ وهو (مشهد المنَّة)؛ بأَنْ يرى تَفَضُّل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه، وإكرامَه له؛ إذ هَداه إلى الصِّراط المُستقيم.

كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: (﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات]).

وقال النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما عند التِّرمذي بسندٍ حسنٍ من حديث معاويةَ: «**أَنْتُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ**».

فمِن مِنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العبد: أَنْ جَعَله من هذه الأُمَّة المَرحومة؛ الَّتي امْتَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ عليها بكمال الدِّين وبِعْثة خَير المُرسلين، وإنزالِ أشرف الكُتب وهو القُرآن الكريم.

ومن هذه المِنَّة - في أفرادها -: أَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَرَض علينا هذه الصَّلوات، وجَعلها في خمسة أوقاتٍ بمنزلة المُطَهِّر من الذُّنوب والخطيئات، كما في «الصَّحيحين» أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟**»، قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الخَطَايَا**».

فمِن مِنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العبد الَّتي ينبغي أَنْ يشهدها: إكرامُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له، وتَفَضُّله عليه بتمكينه من هذه الصَّلاة، وتَهيئة الأسباب الَّتي تُعينه على الإتيان بِهَا.

وَانْظُر هذا في حالك: أَنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَمُنُّ عليك بشهودها في بيوته، بينما أُنَاسٌ كثيرٌ تَتُوقُ أنفسُهم إلى شُهودها فلا يُمَكَّنون من ذلك؛ لِمَا اعتراهم من الأمراض والعِلل، فحالت بينَهم وبين المَجيء إلى بيوت الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وَانْظُر يَمْنةً أو يَسْرةً في الصَّفِّ وربَّما شَهِدتَ مِنَّة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليك؛ إذ تُصَلِّيها قائمًا وغيرُك يُصَلِّيها جالسًا.

فإذا شَهِد العبد مقام مِنَّة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في صلاته، أَوْرَثه ذلك الانكسارَ لله عَزَّوَجَلَّ، وتعظيمَه وخشيتَه.

وهذا المشهد مِن أنفع المشاهد للقلب؛ فَإِنَّه إذا تَمَكَّن من قلب العبد حالَ بينه وبين العُجْب بعملِه ورؤيتِه؛ فإِنَّه يَرى أَنَّه لا قُدرةَ له على شيءٍ من هذه الأعمال إِلَّا بتوفيق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فهو يُرَدِّد قول الشَّاعر:

إِذَا لَم يَكُنْ عَونٌ مِنَ اللهِ لِلْفَتَى   فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

فيعلمُ أَنَّه لم يُوَفَّق إلى هذه الأعمال إِلَّا بتوفيق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له، وإعانتِه عليها.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ مُمْتَنًّا على نَبِيِّه شُعيبٍ من كلام شُعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [هود:٨٨]، فَصَرَّح شُعيبٌ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أَنَّ توفيقه لم يكن إِلَّا بِإعانةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له ومِنَّته عليه.

وقد سمعتُ بعض أهل العلم - وهو الشَّيخ أحمد بن عليٍّ المُبَارك - يقول: (لم

يُذْكَر التَّوفيق في القرآن الكريم إِلَّا في هذه الآية [(١)]؛ إِعْلامًا بعِزَّة توفيق الله عَزَّوَجَلَّ للعبد، وأنَّه مَنصِبٌ عظيمٌ، مَنْ رَزَقه الله عَزَّوَجَلَّ فقد رَزَقه خيرًا كثيرًا).

ومن فوائد مقام المِنَّة ومشهدِها: أَنَّ العبد يُضيف كُلَّ ما هو فيه من الإنعام والآلاء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو يعلم أَنَّه ما منه شيءٌ، ولا قُدْرة له على شيءٍ، بل كلُّ شيءٍ منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وهذا تمام التَّوحيد؛ فإِنَّ قلبَه يمتلئ بتعظيم الله وإجلاله والانقياد له، والانكسارِ بين يديه.



(١) يعني بِهذا المعنىٰ؛ وإلَّا فإنَّ هناك آيةً فيها ذِكْر التَّوفيق علىٰ لسان المنافقين ادِّعاءً، [وهي قوله تعالىٰ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [النِّساء]].

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فصلٌ

المشهد السَّادس: مشهد التَّقصير

وأَنَّ العبد لو اجتهد في القيام بالأمر غاية الاجتهاد وَبَذَل وُسعه فهو مُقَصِّرٌ، وَحَقُّ الله - سبحانه - عليه أعظم، والَّذي ينبغي أَنْ يُقَابَل به من الطَّاعة والعُبُودِيَّة والخدمة فوق ذلك بكثيرٍ، وأَنَّ عَظَمَته وجلاله - سبحانه - يقتضي من العبوديَّة ما يليق بِها.

وإذا كان خَدَمُ الملوك وعَبِيدُهم يعاملونَهم في خِدمتهم بالإجلال لهم، والتَّعظيم، والاحترام، والتَّوْقير، والحياء، والمَهَابة، وَالخَشية، وَالنُّصْح، بحيث يُفَرِّغُون قلوبَهم وجوارحهم لهم؛ فَمَالِك المُلوك وَرَبُّ السَّماوات والأرض أَوْلَى أَنْ يُعَامَل بذلك، بل بِأَضعاف ذلك.

وَإِذا شَهِد العبد من نفسه أَنَّه لَم يُوَفِّ رَبَّه في عُبُودِيَّته حَقَّه، وَلا قَرِيبًا مِنْ حَقِّه؛ عَلِمَ تَقْصِيره، وَلَمْ يَسعه مع ذلك غير الاستغفار والاعتذار مِن تقصيره وتفريطِهِ وعدم القيام بما ينبغي له من حَقِّه، وَأَنَّه إِلَى أَنْ يَغفر له العُبودِيَّة ويعفو عنه فيها أَحْوَجُ مِنْه إِلَى أَنْ يَطلب مِنْه عَلَيها ثَوَابًا، وَهُو لَو وَفَّاهَا حَقَّها كَمَا ينبغي لَكَانَت مُسْتَحَقَّةً عليه بِمُقتضى العُبُودِيَّة، فَإِنَّ عمل العبد وخدمته لِسَيِّده مُسْتَحَقٌّ عليه بِحُكم كونه عبده ومملوكه، فَلو طَلَب مِنْه الأَجْرة عَلَى عَمَلِه وَخِدْمته لَعَدَّه النَّاسُ أَحْمَقَ وَأَخْرَقَ، هذا وليس هو عبدَه ولا مملوكَه على الحقيقة، وهو عبدُ اللهِ ومملوكُه على الحقيقة مِنْ كُلِّ وَجهٍ.

فَعَمَلُه وخِدْمته مُسْتَحَقٌّ عليه بِحُكْم كونه عَبْدَه، فَإِذَا أَثَابَه عَلَيْه كان ذلك مُجَرَّد فَضْلٍ وَمِنَّةٍ وَإِحْسَانٍ إليه لا يَسْتَحِقُّه العبد عليه.

وَمِن هنا يُفْهَم معنى قول النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**».

وقال أنس بن مالكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «يُخْرَج للعبد يوم القِيامة ثلاثة دواوين: ديوانٌ فيه حسناتُه، وديوانٌ فيه سيِّئاته، وديوان النِّعَم الَّتي أنعم الله عليه بِها، فيقول الرَّبُّ - تعالى - لِنِعَمِه: خُذِي حَقَّكِ مِن حسنات عبدي، فيقوم أَصْغَرها فتستنفد حسناته، ثُمَّ تقول: وَعِزَّتِك ما استوفيتُ حَقِّي بعد، فإذا أراد الله أَنْ يرحم عبده وَهَبه نِعَمه عليه، وغَفَرَ له سيِّئاته، وضَاعَف له حسناته»، وهذا ثابتٌ عن أنسٍ.

وهو أَدَلُّ شَيْءٍ على كمالِ عِلْم الصَّحَابة بِرَبِّهِم وحقوقه عليهم، كما أَنَّهم أَعْلَم الأُمَّة بِنَبِيِّهم وسُنَّته ودِينه، فَإِنَّ في هذا الأثر من العِلم والمعرفة ما لا يدركه إِلَّا أولو البصائر العارفون بالله وأسمائه وصفاته وحَقِّه.

ومن هنا يُفْهَم قول النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في الحديث الَّذي رواه أبو داود والإمام أحمدُ من حديث زيد بن ثابتٍ وحذيفةَ بن اليمان وغيرهما: «**إِنَّ اللهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِه وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ**».



قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

خَتَم المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى المشاهد السِّتَّة الَّتي تحصل بِها الصَّلاة الَّتي هي قُرَّة العين بـ(مشهد التَّقصير)؛ وذلك بأنْ يرى أَنَّه مهما حَسَّن صلاتَه واجتهد في تكميلها، واتَّبع في ذلك سُنَّة النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعَرَف مِنَّة الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه بذلك، ولم يكن في قلبه إلَّا الله؛ فإِنَّه كيفما فَعَل فإِنَّه مُقَصِّرٌ في الحَقِّ الَّذي يجب لله عَزَّ وَجَلَّ من الكمال في عبودِيَّته.

وهذا سَيِّد العُبَّاد محمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يشهد هذا المشهد؛ فكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوم اللَّيْل كُلَّه حتَّى تَتَفَطَّر قدماه، فتقول عائشةُ له: إِنَّ الله قد غَفَرَ لَك مَا تَقَدَّم من ذنبك وما تَأَخَّر؟! فيقول: «**يَا عَائِشَة! أَفَلا أَكُوْنُ عَبْدًا شَكُوْرًا**».

وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: («**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**»).

وفي بعض الآثار: أَنَّ الملائكة المُقَرَّبين تُسَبِّح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فتقول في تسبيحها: (سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك).

فإذا كان هذا قول أعظمِ أهل الأرضِ من خَلْق الله عَزَّ وَجَلَّ فيها - وهو محمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وهو قول أعظمِ أهل السَّماء مِن خَلْق الله عَزَّ وَجَلَّ فيها - وهُم الملائكة -؛ يشهدون بأَنَّهم مُقَصِّرون في حقِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فمَا الحَرِيُّ بغيرهم؟!

ولَمَّا وَعَى السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى هذا الأصل العظيم، كانوا ينظرون إلى أنفسِهم بعين المَقت والاحتقار؛ لعِلْمِهم بأَنَّهم مُقَصِّرون فِي جَنب الله عَزَّ وَجَلَّ، مُفَرِّطون في

طاعتِه.

ولقد كان بكرُ بن عبد الله المُزَنِيُّ يَقف في مشهد عرفات، ثُمَّ يُطِيل الدُّعاء، ويُكْثِر من البكاء، ثُمَّ ينظر إلى النَّاس ويقول: «لولا أَنِّي معهم لقلت: إِنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يغفر لهم».

فانظرْ إلى مبلغِ غَمْطِهِ لِنَفسِه واحتقاره لها لعِلْمه بأَنَّه مُقَصِّرٌ في جَناب ما يجب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من حَقٍّ.

وهذه الأحوال ظاهرةٌ في كلام السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى، مُستفيضةٌ في مقامات نفوسهم؛ فكانوا يجتهدون في العبادات لأَنَّهم مُوقنون بأنَّهم مُقَصِّرون في الوجه الأكمل الذي يجب لله عَزَّ وَجَلَّ.

حَتَّى قِيل في ترجمة حَمَّاد بن سَلَمة: إنَّه لو قيل له: «إِنَّك لو تموت السَّاعة لَمَا قَدِر أَنْ يَزيدَ لله طاعةً»؛ يعني لِمَا كان عليه من كمال الحال، وأنَّه كان مجتهدًا في طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومع ذلك كان حَمَّادُ بن سَلَمةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى شاهدًا على نفسه بتقصيره وبقِلَّة عمَلِه في حَقِّ ما يجب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مع ما كان عليه من شِدَّة الوَرَع والخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والحاصل: أَنَّ هذا المشهدَ وما سبقه من المشاهد هي من أعظم المشاهد القلبيَّة الَّتي ينبغي أَنْ يراها الإنسانُ في سائر عمله، لا في صَلاته فقط، وإِنَّما اخْتَصَّ المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى الصَّلاة بالذِّكْر هنا؛ لأَنَّها قُرَّة العين الَّتي جُعِلت للنَّبيِّ

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما بعدها من الأعمالِ تابعٌ لها.

فمَنْ أراد السَّعادةَ لِنفسه، وطَلَبَ النَّجاة في دُنياه وآخرتِه؛ فَلْيلتمِس فِي أعمالِه كُلِّها هذه المشاهدَ السِّتَّة، ولْيُؤدِّبْ نفسه تأديبًا عظيمًا في هذا المقام.

وتأديبها يحتاج إلى دوام مُجاهدةٍ ومُصابَرةٍ؛ وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران].

وأخبَر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّه كائنٌ مع مَنْ جاهَدَ فيه؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت:٦٩].

فإذا صَدَق الإنسانُ فِي جِهاده، والتمس طاعة الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ أَعانه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسَدَّده وكَمَّله حَتَّى يبلغَ به مقاماتٍ عظيمةٍ مع معرفته لقَدْر نفسه بِأَنَّه مُقَصِّرٌ في حَقِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فصلٌ

وَمِلَاكُ هذا الشَّأْن أربعة أمورٍ: نِيَّةٌ صحيحةٌ، وقُوَّةٌ عاليةٌ، يُقارِنُهما: رغبةٌ، ورهبةٌ.

فهذه الأربعة هي قواعد هذا الشَّأن.

وَمَهْما دَخَلَ على العبد من النَّقْص في إيمانه وأحواله وظاهره وباطنه فهو من نُقْصان هذه الأربعة أو نُقْصَان بعضها.

فَلْيَتَأَمَّل اللَّبِيبُ هذه الأربعة الأشياء، وَلْيَجعلها سَيْرَه وَسُلُوكه، وَيَبْنِي عليها عُلومه وأعماله وأقواله وأحواله، فَمَا نَتَجَ مَنْ نَتَجَ إِلَّا مِنْها، وَلَا تَخَلَّف مَنْ تَخَلَّف إِلَّا مَنْ فَقَدَها.

والله أعلم.

والله المُستعان، وعليه التُّكْلَان، وإليه الرَّغبة.

وهو المَسؤول أَنْ يُوَفِّقنا وسائر إخواننا مِن أهلِ السُّنة لتحقيقها عِلْمًا وَعَمَلًا؛ إِنَّه وَلِيُّ ذلك وَالمَانُّ به، وهو حَسْبُنا ونِعْم الوَكيل.

والحَمْد لله وحده.

وصَلَّى الله على سَيِّدنا محمد وعَلَى آله وصَحْبِه وسَلَّم.



قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

خَتَم المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالته هذه بذِكْر أصلٍ عظيمٍ، ترجع إليه الأعمال كُلُّها؛ **وذلك أَنَّ مَلَاك العبد في تحصيل لَذَّتِه يكون بتحصيل هذه الأمور الأربعة:**

وأوَّلها: النِّيَّة الصَّحيحة.

وثانيها: القُوَّة العالية؛ وأراد بِها الهِمَّة.

وثالثها: الرَّغبة.

ورابعها: الرَّهبة.

وَأَشْبَه شيءٍ تُشَبَّه هذه الأربعة: بالطَّائر؛ فإِنَّ الرَّأس هو الهِمَّة العالية، وقَلب الطَّائر فيه النِّيَّة الصَّحيحة الصَّالحة، والجَناحان له بمنزلة الرَّغبة والرَّهبة.

فإذا كان العبد في سَيْره إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمنزلة هذه الأمور الأربعة من الطَّائر كَان سَيْره صحيحًا، وعَمَلُه فالِحًا صالحًا؛ فرَجَع عليه ذلك بنعمة الدُّنْيا والأُخرى، وخَيْر الدُّنيا والأخرى.

وهذه الرِّسالة من خَوَاصِّ رسائل ابن القَيِّم الَّتي ينبغي أَنْ يقرأها الإنسان أكثر مِن مرَّةٍ.

فإِنَّ العِلْم لا يُراد به أَنْ يقرأه الإنسان مرَّةً واحدةً، وإِنَّما يُراد به أن يُكَرِّره على قلبه مرَّةً وثانيةً وثالثةً ورابعةً؛ ليرى ما فيه من العِبَر العظيمة والحِكَم الباهرة، الَّتي يهتدي بِها ويَستدلُّ بِها إلى الطَّريق الصَّواب.

وهذا آخر التَّقرير على الدَّرس المُوَفِّي للثَّلاثين من برنامج (الدَّرس الواحد) الرَّابع،

وهو تمام عِقْدها.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ بِمَنِّه وكَرَمه أَنْ ينفعنا بذلك كُلِّه، وأَنْ يجعله حُجَّةً لَنَا ولا يجعله حُجَّةً علينا، وأن يزيدنا عِلْمًا وعَمَلًا وإيمانًا ويقينًا، وأَنْ يرزقنا عَزائم مَغفرته ومُوجِبات رحمته، وصِدْق الأقوال، وصلاح الأعمال، وحُسْن الحال، وأَنْ يرزقنا الهُدى والتُّقَى والسَّداد والغِنَى، والعَفاف والرُّشد في كلِّ أَمْرِنا، وأَنْ يتولَّانا بولايته؛ فيُحيِيَنا على الإسلام والسُّنَّة، ويُمِيتنا على الإسلام والسُّنَّة، وأَنْ يُعيذنا من مُضِلَّات الفِتَن، فنعوذ بالله من الفِتَن ما ظَهَر منها وما بطَن.

ونسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أَنْ يَتَقَبَّل مِنَّا عَملنا، وَأَنْ يجعله في ميزان حسناتنا ومن خير أعمالنا، وأنْ يُعيد علينا عملنا هذا سنواتٍ عديدةً وأعمارًا مديدةً ونحن في صِحَّةٍ وعافيةٍ والنَّاس في إسلامٍ وسُنَّةٍ وهِدايةٍ.

وهذا آخر ما فتَح الله عَزَّوَجَلَّ به ويَسَّر في هذه الدُّروس، والحمد لله الذي تَتِمُّ بنعمته الصَّالحات.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلم على عبده ورسوله محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

تَمَّ إقراء الكتاب فِي مَجلسٍ وَاحِدٍ
بعد صلاة العشاء ليلةَ الجمعةِ السَّابع عشر من جمادى الأولى
سَنَةَ ستٍّ وعشرين بَعْدَ الأَرْبَعِمِائَةِ وَالأَلْفِ
فِي جامع الإيمان بحي النّسيم بِمَدِينَةِ الرِّياض

فَوَائِد

فَوَائِد

فَوَائِد

فَوَائِد